

الباب الأول

فى أسماء الخمرة

وهى الخمر والراح والراحة والمدام والسلاف والقرقف والعقار
والخندريس والصهبا والقهوة والشراب والطلا والرحيق والشمول والحميا
والكميت والمروقة والمعنتة والمشعشة والصافية والمشمولة والصرف والعتيق
والعائق والبكر والعذرا والعروس وأم الدهر وأخت المسرة وابنة العنب
والسلسل والسلسال والسلسيل والسكر والنبذ والنضوح . فهذه ست وثلاثون
اسما أرق أسمائها وأعذبها وأكثرها دوراً فى كلام الشعراء والأدباء وأرقها
الصهبا وأعذبها الحميا وألطفها السلاف وأخفها المدام وأظرفها القهوة وأقبحها
القرقف وأفضلها الراح لاشتقاقه من الروح وللائمته لها وامتزاجه بها وهو
المراد بقول أبى نواس رحمه الله تعالى :

أئن على الخمر بالائها وسمها أحسن أسمائها

وتلطف بعضهم فقال :

وأحسن ما يهدى إلى الشئ جنسه وللروح أهدي الراح فهى لها جنس

ومذهبى الاقتصار على هذه الأسماء ولكن رسم لى بعض المخاديم أن
أذكر من أسمائها مائة اسم ، وقال ربما وقع فى كلام بعض المتقدمين أو
التأخرين شئ منها ، فيكون الطالب منه على بصيرة وكنت قد امتنعت من
ذلك واعتذرت بأنها ألفاظ متروكة وحشية فلا يليق ذكرها بهذا المجموع
اللطيف إلى أن جمعنى مجلس لبعض الرؤساء وكان محفوفاً بجماعة من
رؤساء المصريين وأعيان الشاميين ، وفى المجلس شاب من أولاد الرؤساء
صحبة والده وكان ذلك الشاب مراما بالأدب فقلما يقع شئ من النظم والشر
إلا ويشارك فيه ويعمل فكره فى فهمه وكان والده فرحاً به فكنت فى ذلك

المجلس كلما وقعت نكتة أو لطيفة التفت إليه وأسأله فتارة يصيب وتارة يخطئ ووالده يسر بذلك ويتهلل بسؤالى له إلى أن جرى فى ذلك المجلس ذكر قصيدة الأسعد بن ممتى التى أولها:

نعم دمعہ يهيمى وأحبابه تطوى

فلما انتهينا إلى قوله فيها:

فمن صدغه والحدآس وروضة ومن ثغره والريق طلع واسفنت

قلت للشاب ما الاسفنت، فقال الظاهر أنه شىء من أنواع الرياحين بدليل أنه قرنه بالآس والورد والطلع فقلت له إنما هو من أسماء الخمر، وفى البيت لف ونشر مرتب فالطلع راجع للثغر والأسفنت للريق وتذكرت ما أشار به مخدومى أولا وكان ذلك هو الباعث على تحسين المساق وإيراد بقية الأسماء وهى:

العجوز والشمطا والكلعا والدم والجريال والأسفنت والعقور والمرا والمزة والعرف والمعركة والدرياق والزنجيل والنامور والمدية والسبا والسبية والخطمة والمصطار والمصفق والمصفقة والخراطوم والقطب والنحامية والعاتية والجاثية والجانبة والمخيلة والمطيبة والمحبة واللذة والنشأة والمنشية والهتبة والبابلية والبشانية والمزنية والزانية والزينية والتميلة والحقبة والسامرية والساهرية والسمرية والمقرية والمفدى والمغدية والمسلية والسارية والمعينة والأسرة والتامرة والخللة والنمامة والدبابة والمنومة والمصرعة والطاردة والمتهمة والمقدمة والمؤخرة والفيهج والصرخد والقنديل والكسيس والزرجون والشموس والغرب والمغرب والرساطون والقارضى والمانع والفالق والنافث والمهيج والنبيد والسويق والصومع والمفتاح والحجة والعمجد وفؤاد الدن وأم عبا وأم زبيق وأم ليلى وأم الخبائث والحرام والأثم. قال الحسن فى قوله تعالى: «قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن» والأثم أراد بالآثم الخمر وقال الشاعر:

شربت الأثم حتى ضل عقلى كذاك الأثم يذهب بالعقول

والمثلثة وهى التى غليت فى النار حتى صارت على الثلث، والمحترمة وهى التى عصرت بقصد الحلية أولاً بقصد الخمرية على خلاف مذكور. فى كتب الفقه، والبتع وهو نبيذ العسل والهعه نبيذ الشعير والمزر نبيذ الحنطة، والشكركة نبيذ الذرة وهو شراب الحبشة. فهذه أيضاً خمسة وتسعون اسماً فمجموع ما ذكرته يزيد على مائة وثلاثين اسماً ما بين مستعمل ومرفوض ومطبوع ومستتهجن بعضها أسماء وغالبها صفات جرت مجرى الأسماء اعتنيت بجمعها من كلام شعر الجاهليين والإسلاميين ولكل منها شرح وعلى غالبه شعر من كلام العرب يشهد له ولكنى اختصرته خوف الملل والإطالة، ونزمت هذا الكتاب عن إيراده لاستهجان ألفاظه وعقادة تركيبه، ومن أراد ذلك فعليه بالكتاب المسمى بقطب السرور للقيروانى، فإن فيه نبذة من ذلك ورأيت فى بعض التذاكر أن لها ألف اسم قال الناشئ عفى الله عنه:

الكرم من كرم الطباع وفضلها والراح روح أخى الفرام الجاهد
ولذاك سميت الشمول لجمعها شمل الخليط وضمها للغارد
وتفاءلوا باسم المدام لأن فى إدمانها إسعاد كل مساعد
وهى العقار لأنهم عقروا بها ما جمعوا من طارف أو تالد
فاعتض بها من كل شىء فائت واغضض بها عين العدو الحاسد
ومن أسمائها ما تحسن فيه التورية كالكميت كالكميت، فإنه من أسماء

الخليل أيضاً ولهذا قال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله:

يا واصف الخيل بالكميت وبالنهـ مد أرحنى من طول وسواس
لا نهـد إلا من صدر غانية ولا كميت إلا من الكاس

أخذه القاضى فخر الدين بن مكاس فقال من موشح:

تقول لحظى من بنى ساسان ينبيك عن مقاتل الفرسان
فال به عن موقف الطعان وإن ذكرت الخيل فى الميدان
فاشرب كميّاً وأعل فوق نهـد

انظر أيها المتأدب إلى غزل عيون التورية فى الكميت والنهد فإنه أيضاً
من أسماء الخيل واللوازم ظاهرة وألطف منه قول الشيخ بدر الدين بن
الدمامينى :

قم بنا نركب طرف الـ لهو سبقا للمدام
وإثن يا صلاح عنا نى لكميت ولبام

وانظر أيضاً إلى حسن الاستعانة ولطف شمائل التورية فى الكميت
والجام فإن الجام من أسماء القدح واللوازم أيضاً ظاهرة وقال الشيخ جمال
الدين بن نباتة عفى الله عنه :

والكاس فى يد ساقينا مشعشة تضىء من حول كسرى ضوء بهرام
قد أسرجت وغدت للهم ملجمة فهى الكميت بأسراج والجام

ففيه ثلاث توريات فى الكميت والأسراج والأجام . قلت ومن هنا
أخذت تسمية كتابى هذا بحلبة الكميت لما كان مضمّاراً لفحول الشعراء
ومجرى سوابق أفكارهم فى التشايبه الخمرية والحلبة ، كما قال الجوهري :
خيل تجمع للسباق من كل أذنـب لا تخرج من اصطبل واحد لكن تسمية
الشيخ بدر الدين بن الدمامينى سقى الله ثراه مقاطيعه التى جمعها فى
الخمریات بمقاطع الشرب علم الله أنى تأخذنى نشوة عند سماعها فالتورية فى
المقاطع وفى الشرب أيضاً ومما حسنـها وزادها ترشيعاً كون الشيخ بدر الدين
سكندريا ومما تحسن فيه من أسمائها التورية أيضاً الاثم ، ولكن الشيخ شرف
الدين عمر بن الفارض رحمه الله جعله جناسا فقال :

وقالوا شربت الإثم كلا وإثما شربت التي فى تركها عندى الإثم

ومنه قول الشيخ ابن نباتة :

ألم يكفك اللحظ الذى صال وانتشا فلم يخل فى الحالين من صفة الإثم

والحرام أيضاً ومنه قول فخر الدين القاضى بن مكانس ملغزاً فى المدام :

لا يجمعون على غير الحرام إذا تجمّعوا كحباب الراح وانتظموا

والعجوز أيضاً ومنه قول ابن نباتة :

قد لقبوا الراح بالعجوز وما تخرج ألقابهم عن العادة

ألانت الفادة التى امتنعت فصيح أن العجوز قوادة

والمرّة أيضاً ومنه قول ابن نباتة :

طاب مقام الأنس مع شادن برزت للعيش فيه برزة

وساعدتنى الراح لما انشنى ولان بعسد المنع والعزّة

فيالها من ربوة خلفه قد أطلعتنى فوقها المزة

والخرطوم ومنه قول الشيخ علاء لدين الوداعى :

طورا يدير مدامة ومنبلا طورا فلست أفيق من خرطومه

وأخذه ابن نباتة فقال :

يا رب ممتنع الوصال محجب بستوه كالبدر خلف غيومه

دارت مرأشفه على وكأسه فسكرت فى الحالين من خرطومه

ومنه قول الشيخ بدر الدين الدمامينى وقد كتبت له على قصة :

لله ما أسعدها قصة قلبى بها قد نال مأموله

ورحت نشوان بها إذ غدت بخطك الميمون مشموله

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى ملغزاً فى لفظ المدام :

وما شىء حشاه فيه داء وأوله وآخره سواء
إذا ما زال آخره فجمع يكون الحد فيه والمضاء
وإن أهملت أوله ففعل له بالرفع والنصب اعتناء

وقال الشيخ شهاب الدين بن حجر محاجياً فى صهباء :

يا فاضلاً هو فى الأحبا جى ليس يخلو من ولع
ما مثل قولك للذى ييكى الحبيب أسكت رجع

وكتب بعضهم إلى القاضى محمد بن عبد الرحمن بن قريعة البغدادى
فتيا وهى ما يقول مولانا القاضى أيدى الله تعالى فى رجل سمى ولده مداماً
وكناه أبا الندامى وسمى ابنته الراح وكناهها أم الأفراح، وسمى عبده الشراب
وكناه أبا الأطراب، وسمى وليدته القهوة وكناهها أم النشوة أينهى عن بطالته،
أم يؤدب على خلاعته .

فكتب فى الجواب: لو بعث هذا لأبى حنيفة، لجعله خليفة، ولعقد له
رأيه وقاتل من تحتها من خالف رأيه، ولو علمنا مكانه لقبلنا أركانه، فإن أتبع
هذه الأسماء أفعالاً، وهذه الكنى استعمالاً، علمنا أنه قد أحيا دولة المجون،
وأقام لواء ابنة الزرجون، بايعناه، وشايعناه. وإن تكن أسماء سماها ماله بها
من سلطان خلعتنا طاعته، وفرقنا جماعته. فنحن إلى إمام فعال، أحوج منا
إلى إمام قوال، فانظر أيدى الله تعالى إلى معانى هذا النثر الذى يعجز عنه
البديع والمجون الذى لا يلحقه الخليع .

الباب الثانى

فى أصل الخمرة وأول من اعتصرها وما السبب فى ذلك

قيل أول من عصرها إبليس لقبايل وأولاده وصنع لهم آلات الملاهى، وقال الشيخ كمال الدين الديمرى فى حياة الحيوان فى الكلام على الطاوس ما نصه: حكى أن آدم عليه السلام لما غرس الكرمة جاء إبليس فذبح عليها طاوسا فشربت دمه، فلما طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه، فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه.

فلهذا شارب الخمر تعتره هذه الأوصاف الأربعة، وذلك أنه أول ما يشربها وتدب فى أعضائه يزهو لونه ويحسن كما يحسن الطاوس فإذا جاء مبادئ السكر لعب وصفق ورقص كما يرقص القرد، وإذا قوى سكره جاءت صفة الأسد فيعبث ويعربد ثم يهزئ بما لا فائدة فيه، ثم ينقص كما ينقص الخنزير ويطلب النوم وتنحل عرى قوته. انتهى.

وحكى والله أعلم عن بعض الملوك المتقدمة، وقيل إنه من أولاد شيث النبى عليه الصلاة والسلام أنه جلس يوماً فى قصره وإخوته حوله فأوا ثعباناً فى أعلا حائط وقد مد عنقه إلى وكر حمامة بإزائه ليلتقم بعض فراخها، وفى غضون ذلك جاءت أمهم لتزق الفراخ، فشاهدت تلك الحالة ففزعت واضطربت وضربت بجناحها فنظر إليها الملك وأمر بعض إخوته أن يقطع غصناً من شجرة نابتة هناك فقطعه وتناولوه الملك وحناء قوساً وأوتره بسرياق رفيع ونحت له عوداً ووضعوه فى كبد القوس، ويقال أنه أول قوس وضع وفوق به على عنق الثعبان فلم يخطه وسقط إلى الأرض فبادروا إليه وقتلوه فرفرت الحمامة على أولادها، وقد ذاق حلاوة الأمن من بعد ما عيانت من أليم الشدة وطارت بعد ذلك وغابت مدة، ثم عادت وفى فمها بذر فشرته بين

يدى الملك ، فقال الملك أظن أن هذه الحمامة قصدت مكافأتنا على صنيعنا ، وأرى أن تزرعوا هذا البذر فى الأرض لنرى ما يصير منه ، وينتهى إليه حاله . فبذروه فى الأرض وتعاهدوه بالسقى فنبت ونمى وامتد وطال وعرش وأينع وأزهر وأثمر ، فلما صار حصر ما تكلم أحدهم مع الملك فى قطف شئ منه . فقال : لا أرى ذلك .

وجل القصد أن يترك إلى أن ينتهى ونرى ما يؤول إليه أمره ، فأهملوه إلى أن انتهى وتساقط على الأرض ، فأمر الملك بإيداعه فى إناء وغطى الإناء ، وقال دعوه حتى نرى ما يصير منه ، ثم تعاهدوه بعد أيام فوجدوه قد هاج واضطرب وأزبد وأرغى ، فقال لا بد لهذا من منتهى فاصبروا عليه حتى يسكن ، فتركوه مدة ، ثم تعاهدوه فوجدوه قد سكن وصفا وراق وضاع عرفه وبقي على الهيئة المعلومة ، فقال : هذا انتهاؤه وأراد بعض إخوته أن يستعمل منه شيئاً فنهاه عن ذلك وقال لا بد من تجربته فى الغير ، وكان من عادتهم أن الشيخ الكبير إذا طعن فى السن وعجز عن الحركة أودعوه فى مكان وأجروا عليه ما يحتاج إليه من مأكلى ومشرب إلى أن يموت ، فأمر الملك بإحضار جماعة من المكان المذكور فأتى له بسبعة أنفس بين ضعيف وطريح وأعمى ومقعّد ، وأمر ساقياً فملاً كأساً وطاف عليهم فدارت عليهم الأقداح ، فما منهم إلا من قام ومشى ودار ورقص ، فلما كان من الغد سألوهم عن حالهم فقالوا لما شربنا القدح الأول طابت نفوسنا ولما شربنا الثانى طربنا ، ولما شربنا الثالث رأينا الملك كأنه فى خدمتنا فاتخذوها وعصروها وشربت واستمر ذلك إلى الآن .

هكذا رأيت هذه الحكاية فى بعض التذاكر ، ثم رأيت المسعودى أوردتها فى ترجمة ، فلولى السراسين من مروج الذهب على بعض اختلاف فيها ، ثم قال هذا شراب الملوك وأنا كنت السبب به فلا يشربه غيرى ، وقال فى آخرها

أن الملك قد منع العام من شربها، فاستعمله الملك بقية أيامه، ثم نعى فى
أيدي العامة فاستعملوه.

قال وقد قيل أن نوحاً أول من زرعه وأن إبليس سرقه منه وقت خروجه
من السفينة واستوى به على الجودى. قال وهو موجود فى كتاب الندامى
وغيره من الكتب انتهى، وسيأتى نظير هذه الحكاية فى الكلام على الريحان
من باب الزهريات وفى هذا المعنى يقول أبو نواس:

ومقعد قوم قد مشى من شرابنا وأعمى سفيناه ثلاثاً فأبصرنا
وأخرس لم ينطق ثلاثين حجة أدركنا عليه الكاس يوماً فهمرا
وبالغ ابن صاحب تكريت فقال:

فلو دفنوا ميتاً بظل كرومها لعاش به من بعد ما ضمه القبر
ولو كتب اسم الكرم من فوق راية لجيش لام الجيش فى ساعة نصر
وأبلغ منه قول الشيخ شرف الدين بن الفارض قدس الله روحه:

ولو قربوا من حانها مقعد مشى وتنطق من ذكرى مذاقتها البكم
ولو جليت يوماً على أكمه غدا بصيرا ومن راووقها تسمع الصم
ولو عبقت فى الشرق أنفاس طيها وفى الغرب مزكوم لعادله الشم
ولو أن ركبا يمموا ترب أرضها وفى الركب ملسوع لما ضره السم
ولو رسم الراقى حروف اسمها على جبين مصاب جن أبرأه الرسم
ولو طرحوا فى ظل حائط كرمها عليلاً وقد أشفى لفارقه السقم
ولو نضجوا منها ثرى قبر ميت لعادت إليه الروح وانتعش الجسم

وأما قوله: رأينا الملك كأنه في خدمتنا فيشهد له ما حكى عن عبد
الملك بن مروان أنه قال للأخطل: أراك تكثر وصف الخمر نظمًا ونثرًا وأولها
مرار وآخرها خمار. قال إن بينهما ساعة لا أبيعها بملكك وأنشد:

إذا ما نديمي علني ثم علني ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت أجر الذيل تيهها كأنني عليك أمير المؤمنين أمير



الباب الثالث فى طبائعها ومنافعها وخواصها

طبعها حاد رطب، ومنافعها وخواصها أنها تفتق اللسان وتزيد فى الهمة، وتمد فى الأمانة وتآلف شمل البعيدين وتزرع المحبة بين المختلفين وتنظم الأخاء وتزيد السخاء، وتعطف قلب القاسى وتشجع الجبان وتستدر الجود من البخيل، وتجلو الهموم عن القلوب، وتحدث فى الطباع طربا ونشأة لا يحدثها غيرها من املاهى .

وقال بعض الحكماء: ليس شىء ينشر الفرح والسرور ويجذب فى القلوب الصبابة والغزل والأحوار ويكسوا الخدود من التورد والاحمرار مثل الخمرة وليس فى المقام شىء أجمع منها لهذه المنافع .

وقال ابن المعتز: من خاصة الشراب جودة الهضم ونفى الغم ومنع مضر الماء وإزالة مكروه الأدوية وإليه الإشارة . يقول بعضهم:

شرب النبيذ على الطعام ثلاثة فيها الشفاء وصحة الأبدان

تبرى الطعام وتبتدى بمسرة وتزيل كل الهم والأحزان

وقال الشعلى: لكل شىء سر وسر النبيذ السرور . وقال الجاحظ أن النبيذ إذا تمشى فى عظامك ودب فى أجرامك منحك الصدق الحسن وسد عنك باب الغم وحسم عنك خاطر الهم .

وقيل لبعضهم ما آتسك بحب الشراب فقال: لأه يقدر فى بدنى بنوره وفى قلبى بسروره، وقيل لدهقان ما الذى حبب إليك شرب الراح، فقال: لأنى رأيت الكاس يدخل والهم يخرج ومن هنا أخذ بعضهم فقال:

إذا ما صب في الكاسات خمر رأيت بها شموسا في بروج
وإن جلبت على الندمان يوما تراحمت الهموم على الخروج
وقال جالينوس الراح صديق الروح، وقال بعض الحكماء الراح خميرة
الفرح وصابون الترح مصحة للبدن مطيبة للنفس تفتح لها العروق أفواهاها كما
تفتح الفراخ أفواهاها للطعام، وقال كسرى: الراح صابون الهم. ومن هنا أخذ
الشيخ بدر الدين البشتكى فقال:

وكننت إذا الحوادث دنستني فزعت إلى المدامة والنديم
لأغسل بالكؤوس الهم عني لأن الخمر صابون الهموم
وقال أرسطاطاليس: الراح كيمياء الفرّح، ومن هنا أخذ ابن الوكيل
فقال:

وليست الكيمياء في غيرها وجدت وكلما قيل في أبوابها كذب
قيراط خمر على قطار من حزن يعود في الحال أفراحا وينقلب
وقال آخر الراح درياق الهم، أخذه ابن الوكيل أيضا فقال:
إن الذي جعل الهموم عقاريا جعل المدام حقيقة درياقها
وقال يزيد بن المهلب وددت لو أن كاسا بألف دينار أخذه الأديب حسام
الدين بن منفذ المخزومي فقال:

إنى أشح بدرهم متصدقا وأجود في قدح بما ملكت يدي
وقال بعضهم: الشراب. يرد الشيخ في طبع الشباب ويدعوا الشباب
إلى نشاط النشوان، وفيه يقول بعضهم:

ما العيش إلا في جنون الصبا فإن تولى فـجنون المدام
كاس إذا ما الشيخ والى بها خمسا تردى برداء الغلام

وقال سيف الدين المشد:

طاف بالراح علينا فرأينا الشمس تجللا
بنت كـرم خندريس لطفت مـعنا وشكلا
لست أدري من سناها هي في الكاسات أم لا
عمرت في الدن حيناً فاكتسبت نبلا وفضلا
تسرك الشيخ صبياً وتعيد الكهل طفلاً

وحكى الأصمعي: أن عجوز من الأعراب جلست في طريق مكة إلى فتیان يشربون نبيذ التمر فاستدعوها وسقوها قدحا فطابت نفسها وتبسمت ثم سقوها ثانياً فاحمر وجهها وضحكت، ثم سقوها ثالثاً فقالت خبروني عن نسائكم بالعراق هل يشربن من هذا الشراب. قالوا نعم، قالت زين ورب الكعبة.

وقال أبو العينا: قدم رسول ملك الروم على المتوكل فجمعني وإياه مجلس فقال الرسول وقد حضر الشراب ما بالكم حرمت عليكم الخمر ولحم الخنزير، فتركتم لحم الخنزير ولم تتركوا الخمر. قال أبو العينا فقلت أما أنا فلا أشرب الخمر فسل من يشربها فقال إن شئت أخبرك فقلت لا أكره ذلك. فقال إن الخنزير لما حرم عليكم وجدتم عنه بدلاً هو خير منه، ولم تجدوا ما يعادل الخمر إلا شربه فلم تصبروا عنه.

وقال عبد الله بن زياد للأحنف بن قيس يا أبا بحر ما ألد الأثرية. قال الخمرة. قال: كيف علمت ذلك ولم تذوقها. قال: لأنني رأيت من أحلت له لا يتعداها إلى غيرها ومن حرمت عليه يتخطاها إليها.

وقال الشعالي: الدنيا معشوقة الراح. وقيل لأبي عائشة أن فلاناً لا يشرب النبيذ فقال قد طلق الدنيا ثلاثاً.

وقيل للأعمش مثل ذلك فقال دعوه حتى يقتله القولنج .

وقال الجاحظ: كل شيء من المأكول والمشروب يكون أوله أطيب من آخره إلا النبيذ، فإن القدح الأول ثقيل، والثاني أسهل، والثالث أسلس، والرابع أسوغ، والخامس أعذب، والسادس ألد حتى ينتهى إلى غاية الفرح والسرور .

ومن الأمثال: فلان أثقل من القدح الأول وأثقل من كتاب على شراب . وقال المأمون العباسي: اشرب النبيذ ما استبشعته، فإذا استطيبته فدعه، وقال أيضاً اشرب من النبيذ مالا يشرب عقلك النبيذ عروس مهرها العقل، وقد قيل حد السكر أن يعرى الهموم ويظهر السر المكتوم .

وقال الفرزدق: أحب الشراب أقربه من الثمانين أى الذى يوجب الحد فإن الصاحى بين السكارى كالحى بين الموتى يأكل من نفلهم ويضحك من عقلهم .

وقال الحسن: الصرف أصرف للهموم .

وقال ابن وهب: ما أنصفتها تضحك فى وجهك وتعبس فى وجهها، وقال ما أطيب الخمر لولا الخمار ونعم الخليطان ماء الغمامة والخمر، وقال بيننا من المصافة ما بين الراح وماء القراح لا يطيب الشراب الصافى إلا مع النديم المصافى فضل النبيذ على غيره كفضل الشاب على الهرم والصحة على السقم التبذل على النبيذ طرف والوقار عليه سخف بيد الكاس ثغرك إذن الوسواس :

وماء الكرم للرجل الكريم وللأرض من كأس الكرام نصيب

وقد أخذ غالب ههذ المعانى بلغاء المتأخرين وسبكوها فى قوالب حسنة نوردها إن شاء الله تعالى فى مواضعها . وقالت: دنانير جارية البرامكة من

أصبح وعنده قنينة ناقصة وزبدية طباهجية باردة وتفاحة معضوضة، ولم يصطبج فهو أحرق فاسد المزاج محتاج إلى العلاج. ويحكى أن عبد الملك بن مروان قال لأعرابي صف لي الخمرة فأطرق ساعة ثم قال:

شموس إذا شجت لذى الماء مرة لها فى عظام الشاربين دبيب
تريك النداء من دونها وهى دونه لوجه أخيها فى الوجوه قطوب

فقال عبد الملك شربتها يا أخا العرب ووجب عليك الحد، فقال ومن أين لأمر المؤمنين، قال: لأنك وصفتها بصفتها. فقال له الأعرابي: وأنا أيضاً قد رابنى من أمير المؤمنين ما رابه منى بأن يكون قد شربها، حيث عرف أنى قد وصفتها بصفتها فضحك منه وأحسن جائزته.

قلت: وهذه حكاية لطيفة ولكن البيتين لم يظهر معناهما. ونظير ذلك ما اتفق لأبى نواس وقد أمر الرشيد بقتله فقال: أتقتلنى يا أمير المؤمنين شهوة لقتلى. قال: لا بل استحقاقا. قال أبو نواس: فإن الله تعالى يحاسب ثم يعفو ويعاقب فبم استحقيت القتل. قال: بقولك:

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

قال يا أمير المؤمنين أفعلت أنه سقانى وشربت. قال: أظن ذلك. قال: أتقتلنى على الظن وبعض الظن إثم، قال: قد قلت أيضاً ما تستحق به القتل. قال: ما هو، قال: قلت فى التعطيل:

ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذمات أو فى نار

قال أجبنا أحد يا أمير المؤمنين. قال: لا. قال: تقتلنى على الصدق. قال: ألسن القائل:

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

قال يا أمير المؤمنين أو صار القول فعلا. قال: لا أعلم. قال: يا أمير المؤمنين أتقتلني على ما لا تعلم قال دع هذا كله قد اعترفت في مواضع كثيرة من شعرك بما يوجب القتل وهو الزنا قال أبو نواس قد علم الله هذا من قبل علم أمير المؤمنين فأخبر أني أقول ما لا أفعل. قال تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأهم يقولون ما لا يفعلون» فقال الرشيد: خلوا سبيله ومن هنا أخذ الشيخ صفى الدين الحلبي:

نحن الذين أتى الكتاب مخبرا بعفاف أنفسنا وفسق الألسن

روى المدايني: بينما أبرهة بن الصباح الكندى عند عمر بن عبد العزيز وإذا بفتية سكارى لهم جمال وحشمة فأمر عمر بضربهم الحد فقال أبرهة بالله أيها الأمير لا تفضح هؤلاء بمصرنا فقال إنني أقيم الحق فيهم وفي غيرهم وأحد فقال أبرهة يا غلام آتني من شرابهم في القدح فتناوله قدحاً فشمه وشربه وقال أصلح الله الأمير ما نشرب في بيوتنا على عادتنا إلا من هذا. قال أطلقوهم فلما خرج أبرهة قيل أتشرب الخمر قال الله يعلم أني ما شربتها قد ولكن كرهت أن يفضح مثل هؤلاء في بلدة أنا فيها.

نادرة: اجتمع محدث ونصراني في سفينة فأخرج النصران زكرة من خمر كانت معه وصب منها في كأس وشرب ثم صب ثانيا وعرض على المحدث فتناوله من غير فكرة ولا مبالاة، فقال النصراني جعلت فداك أنها خمرة، فقال من أين علمت ذلك قال اشتراها غلامى من يهودى فشربها المحدث سريعا، وقال للنصراني ما رأيت أحقق منك نحن أصحاب الحديث نتكلم في مثل سفيان بن عيينة ويزيد بن هارون أفصدق نصرانيا عن غلامه عن يهودى والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد.

لطيفة: قال أبو بكر بن عياش كنت أنا وسفيان الثوري وشريك نمشى بين الخيرة والكرفة فرأينا شيخاً أبيض الرأس واللحية حسن السميت، فقلنا هذا

شيخ جليل قد رأى الناس وسمع الحديث وكان سفيان أطلبنا للحديث وأعلمنا به وأحفظنا له فتقدم إلى الشيخ وسلم عليه ثم قال هل عندك شيء من الحديث. قال الشيخ أما الحديث فلا ولكن عندي عتيق سنين قال فنظرنا في أمر الشيخ فإذا هو خمار ومن هنا أخذ الشيخ بدر الدين البشتكي فقال:

وخمار هدينا في الدياجي بجذوة كاسه وسنى النديم
سألنا منه عن خمر حديثا فأخبرنا عن العصر القديم

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة وأجاد:

إنى إذا آنست هما طارقا عاجلت باللذات قطع طريقه
ودعوت ألفاظ المديح وكأسه فنعمت بين حديثه وعتيقه

الباب الرابع فى استعمالها على رأى الحكماء

قال الشيخ الإمام علاء الدين أبو الحسن على بن الحزم القرشى المتطبب المعروف بابن النفيس فى كتابه الموجز عندما ذكر تدبير المشروب وخير الشراب ما طاب طعمه وعطرت رائحته وصفا لونه واعتدل قوامه والعلامة الجيدة للشراب الجيد الخالى من الغش أنه إذا ترك منه المقدار القليل مدة طويلة لم يفسدوا بقدر طول المدة تعرف الجودة والرقيق اللطيف أسرع إسكارا وتخللا وأدوم خمارا لكنه يسمن وخصوصا الحلو ويختار للشبان والمحرورين الأبيض الممزوج قبل شربه على الكثير الماء وللمشايع الأصفر القوى القليل المزج فإن أرادوا الاغتذاء والسمن فالأحمر، وإنما يستعمل الشراب عند انحدار الغذاء من المعدة.

وأما فى خلل الأكل أو عقيبه فصار يستعيره الغذاء على نجاحته على أن المعتاد به قد يتتفع باستعمال ما يعين على الهضم لا بمقدار ما يقوى التنفيذ وما دام السرور يتزايد واللون يحسن والبشرة تلين والجلد يربو والحركات نشطة والذهن سليما، فلا تخف من إفراط فإن أخذ النعاس يغلب والعقبان يقوى البدن والدماغ يثقل والذهن يتشوش والحركة تسرخى فقد وجب الترك وحيثئذ يجب القىء والقىء على قليل منه ردىء لأنه يغصب من البدن ما ينفعه والشرب بالأقذاح الصغار خير من الكبار والتباعد بين الأقذاح لينهضم الأول قبل ورود الثانى أحسن وينبغى أن يحف مجلس الشراب بالمنظر اللذيذ من الأزهار والمحبوبين من الناس والأرايح اللذيذة والسماع المطرب وغسل البدن والأطراف ولبس المشرق وتسريح اللحية والرأس وتقليم الأظفار وليكن المجلس مشرقا فسيحا بقرب المياه الجارية مع الظرفاء من الأصدقاء، وذلك لأ

الشراب يحرك قوى النفس ويثير الشهوة فإذا لم تجد كل قوة مطلوبها تأذت وانقبضت فلا تقبل النفس على الشراب كل القبول ولا تتصرف فيه التصرف الواجب فيقل نفعه وربما فسد فكان شره أكثر من نفعه ومنافع الشراب منها نفسية ومنها بدنية .

أما النفسية فلا يمكن أن يساويه فيها غيره وذلك كالسرور وبسط النفس وتفتح أملها وتشجيعها وإزالة البخل والغم والفكر الفاسد وهو أنفع الأشياء للماليخوليا لتفريجه المضار وإيجاس السوداء ويحسن الظن ويقوى الذهن لقوى الدماغ لأن الدماغ لا ينفعل عن الحدة والشراب المسكر بل عن حره اللطيف فيصفو ذهنه صفاء لا يصفو مثله بغيره، فلذلك قوى الدماغ لا تسكر بسرعة وبسرة السكر وبطؤه تعلم قوة الدماغ وضعفه .

وأما البدنية فإنها وإن أمكن أن تستفاد بغيره من المعاجين والمركبات وذلك يعسر كتحسين اللون وإنارته وتبريقه وإشرافه وتقوية الحرارة الغريزية وإنعاشها وإضاج الرطوبات وتفتيح المجارى وإزالة سددها وتفتح المسام وتقوية الهضم وتلطف الروح وإنارتها وإنارة الدم وتنقيته وإنضاج البلغم وتلطيفه وإدراار الصفراء وترطيبها وتعديل مزاج السوداء وقمع عاداتها وإخراجها ونفعه يتعلق بالقوى الطبيعية والحيوانية أكثر من القوى النفسانية وإدامته تبلد الذهن وترخ العصب وتوهى قوى الدماغ وتورث الرعشة والتشنج وكثيرا ما يمت السكران بالسكتة ولا بأس به فى الشهر مرتين لإراحة قوى الدماغ والفصل والبلد الباردان محتملان كثرة الشراب وقوته والصرف محرق للدم مفسد لمزاج الدماغ والكبد ومهما أمكن ترك التنقل فهو أولى لكن المحرور قد ينتفع بالتنقل بمثل السفرجل والرمان المز والتفاح والكمثرى والزعرور وأقراص الليمون وحماض الأترج وشرابه بل قد يحتاج إلى التنقل بأقراص الكافور كما يفعل بالمدقوقين والمبرود بجوارش التفاح والتمر والفسق المملح المرطوب بالقضامة وزيتون الماء والفسق واللوز المملوحين .

والأشياء التي تبطل بالسكر التثقل باللوز وخصوصا المر ونهايته خمسون
لوزة تستعمل قبل الشراب وكذلك استعمال المدرات والثرائد الدهنية وإن
أبطأت بالسكر لكنها تمنع كثرة الشرب والمسكرات بسرعة كالتثقل بجوز الطيب
ونقعه في الشراب وكذلك العود والشيلم وورق العنب والزعفران وكل هذه
مسكرات مفردة.

وأما البنفسج واللفاح والشوكران والأفيون فمفرط وإنما يستعمل لمن يريد
أن يعالج بماء لأنه يتحملة في الصحو، ومما يذهب رائحة الشراب الكزبرة
اليابسة والراسن والدار الصيني.

وأفضل ما مزج به الشراب الماء وقد يمزج بماء لسان الثور ليزاد تفريجه
فهو مع ذلك يسر سرورا عظيماً وقد يمزج بماء الورد فيقوى المعدة والقلب
اتتهى كلام ابن النفيس مع بعض اختصار منه ورأيت على حاشية بعض
المجاميع بإزاء كلام ابن النفيس هذا هو الدر النفيسي فلا يحتاج ظريف للتأدب
بغيره.

وقال الحكيم الفاضل محمد بن المجلى الشهير بالعنبري في كتاب النور
المجتنا من رياض الندما، واعلم أن الإكثار من الخمرة يحدث الأمراض الباردة
الرطبة كالسكتة والفالج واللوقة والرعدة والاسترخاء والسبات، هذا لمن
مزاجه مستعد للبرد، فأما أصحاب المزاج الحار فإنها تولد لهم الحميات
الحارة، ولا سيما إن وافقها غذاء حار وفصل حار ومزاج صرف.

والفرض من الخمرة أن يأخذ منها اليسير بعد الطعام بثلاث ساعات
ومن أراد أن يطول جلوسه على الشراب فلا يستكثر من الرياضة والحمام ولا
يمتلئ من الطعام وإذا كان الغذاء ظهرا وكان لشراب عصرا ولا بأس باستعمال
النشوة والسكر في الشهر مرتين، ويبدأ بالأقداح الصغار أولاً، وشم التفاح
عند الشرب يسرع بالسكر وهو التفاح العضوض، قال ومنه صفة تفاحة تسكر

سريعاً إذا شمت يؤخذ زعفران وميعة وخزاما وتفتح وقشور أصول البيرج
ينعم سحقه ويعجن بشراب صرف عتيق وتتخذ منه تفاحة منقشة وتشم
والمرمل مفردا ومع الشراب يسكر سكرًا مفرطًا ومن شرب خمس سعديات أو
عشرة مسحوقة لم يسكر يومه، ويجب ألا يفعل ذلك إلا صاحب المزاج
البارد وأما المحرور فيجعل غذائه إذا أراد ذلك بالخل والسماق والحصرم وماء
الليمون بلحوم الدجاج والجدا والخرفان ومص الرمان المز وأكل السمك الطرى
بالخل والتنقل باللوز الحلو.

وأما ما يقطع رائحة الشراب من الفم فمن ذلك سعد وكبابة ودارصيني
بالسوية يدق ويسف منه مثقال لا سيما بعد القيء المستقصى وسف الكزبرة
والنعناع ومضغ العود الرطب وكذلك المعد وأكل البصل وكذلك الفوتنج
المهرى إذا مضغ قطع رائحته انتهى كلام العنبري ملخصاً.

وقال الشيخ كمال الدين فى حياة الحيوان فى الكلام على السمك أن
السكران إذا شمه يرجع عليه عقله ويزول عنه سكره.

وقال التيفاشى فى كتابه سرور النفس بمدارك الخواس الخمس وهو عدة
مجلدات أنى وجدت جل من يستعمل هذا المشروب لا يفى له خيره بشره ولا
يقوم نفعه بضره وذلك لجهله بوجه استعماله فإن من المعلوم أن المقصود من
شرب الخمرة منفعتان إحداهما راجعة للنفس وهى التفريح ونفى الهموم،
والأخرى للبدن وهى حفظ صحته عليه ونفى الأمراض النازلة به ويتحقق عند
كل من له أدنى مسكة من عقل أنها إذا استعملت على غير ما ينبغى انعكست
هاتان المنفعتان مضرتين فصار عوض السرور هما وغما وضجرا وسوء خلق
وعوض الصحة مرضا مزمنًا أو موتا فجأة، إلا أنه لا يقتصر الأمر على عكس
هاتين المنفعتين فقط، بل يتعدى إلى مضار أخرى عظيمة إن سلمت المهجة
كذهاب العقل والمال والجاه والذكر الجميل، بل لا يقف الأمر على ذلك بل

يتعدى الأعقاب فإن الحكماء أجمعوا قطبة على أن مدمن الخمر لا ينجب وإن
أنجب كان الولد أحمق . انتهى كلام التيفاشى مع بعض اختصار .

والرؤم تمدح الشراب الأحمر والفرس تمدح الأصفر والعرب تصف بدقة
أفكارها ورقة طباعها كل لون بما يليق به ورأيت الشعراء قاطبة تتغالى فى
وصف الراح بالقدم ولهم فى ذلك أشعار بديعة نوردها إن شاء الله تعالى فى
موضعها .

ورأيت عامة الأطباء قالوا أن العتيق من الشراب يضر بالعصب وسائر
الحواس فينبغى أن يتجنبه من كان فى أعضائه ضعف فالجديد نافخ عسر
الانضمام مكثر البول ويولد أخلاطا رديئة قالوا خير الشراب المتوسط بين
الحديث والعتيق ومن كلامهم الشراب لستته والخبز ليومه واللحم لوقتته ،
واختلفوا فى القدر الكافى منه فقال قوم حظ النفس فى رطل واحد ، وقال
قوم منهم المأمون ولد هارون الرشيد بل فى رطلين وأنشد :

رطلان لا أزداد فوقهما فى الشرب مع ندمان أو وحدى
فليعلمن من قد أنادمه أنى أحب عواقب الرشيد
وأريد ما يقوى به بدنى وأجانب الأمر الذى يردى

وسياتى للمأمون مذهب ثان هو أقرب إلى الصواب ، وقال قوم منهم
أبو نواس الحكمى بل أربعة أرطال وأنشد فى ذلك :

رأيت طبائع الإنسا ن أربعة هى الأصل
فأربعة لأربعة لكل طبيعة رطل

هذه عادة المقتصدين من أرباب الفن فأما من تجاوز هذه المقادير إلى حد
السرف على نفسه وجسمه وعقله ، فقال الرطل الخامس أسر والسادس أسوغ

والسابع أبهى والثامن أشهى والتاسع أطيب والعاشر أرطب إلى أن ينتهى إلى حالة غير مرضية، فذاك ذنب عقابه فيه حتى أن بعضهم لا يستفيق من شربها ليلا ولا نهارا، كما سيأتى بيانه فى المغرمين بشربها.

وما ألطف أبا نواس، وقد رأى رجلا سكران فصار يعجب منه ويضحك ف قيل له ما يضحكك وأنت كل يوم مثله قال ما رأيت سكران قط قيل له وكيف ذلك قال لأنى أسكر قبل الناس ولا أفيق إلا بعدهم فلا أعلم حال السكارى بعدى وكان ابن هرمة مغرى بالنيذ فمر فى بعض الليالى على جيرانه وهو سكران والصبيان يصيحون عليه تى دخل بيته فلما كان من الغد دخلوا عليه وعاتبوه، فقال والله لقد تطلبت هذه السكرة مدة حتى ظفرت بها، أما سمعتم قولى :

أسأل الله سكرة قبل موتى وصباح الصبيان يا سكران

فتركوه وانصرفوا عنه، ويحكى أن أبا الهندى كان منهمكا على الخمر مغرما بالشرب ودخل حانة خمار فشرب عنده إلى أن غلب عليه السكر فام ودخل جماعة فتيان فأروه على تلك الحالة فقالوا للخمار ما حال هذا، قال طيب العيش، قالوا فألحقنا به فسقاهم حتى انتهوا إلى حاله فانتبه أبو الهندى فرآهم فقال للخمار ما حال هؤلاء فقال مبسوطون قال فالحقنى بهم فسقاه حتى لحق بهم وانتبهوا فقالوا له مثل ذلك إلى أن مضت عليهم عشرة أيام ولم يلتق بعضهم ببعض ثم أنشد أبو الهندى فى ذلك :

ندامى بعد عاشرة تلاقوا	تضمهم الفتوة والسماح
رأونى فى السرور على وسادى	يجاذب مهجتى ورد وراح
فقالوا أيها الخمار من ذا	فقال أخ يلذ لى اصطباح
فقالوا قم وألحقنا وعجل	بنا إنا لمصرعه تراح

و حال تنبهي فسألت عنهم فقال أناخهم قدر متاح
فقلت له فسر حني إليهم حثيثا فالسراح هو النجاح
فما إن زال ذاك الدأب منا إلى عشر نفيق ونستباح
نقم معا وليس لنا تلاق ببسيت مـالنا عنه براح

ولعمري إن في هذا الأمر خروجاً عن الحد، والذي يظهر لي أن ذاك
يختلف باختلاف الأشخاص والعادات والزمان والمكان والساقى والنديم فلا
يتقدر بمقدار ولا يتخصص بمعيار فربما أسكر السير دون الكثير، وقال المأمون
وقد سمع بعض ندمائه ينشد قول أبي نواس المتقدم:

رأيت طبسائع الإنسـا ن أربعـة هـي الأصل
فأربعـة لأربعـة لكل طبيـعة رطل

فقال أخطأ أبو نواس إذا صح بدن الإنسان فأكل وشرب ما شاء لم
يضره، وإذا كان سقيما فالجرعة الواحدة تؤذيه فضلا عن أربعة أرطال وأنشد
بديها:

ألا قل لإخوان المدام تسمعوا فإن كلام النصح يوعى ويسمع
ثلاثة أرطال لذى اللب قنع وفي أربع أنس له وتمتع
فإن كان من تهواه حاضر شربه فحقق عليه خمسة لا تضيع
ويزداد رطلا أن رأى منه عطفة فيكمل عند الستة اللهو أجمع

وما ألفت بعضهم وقد سئل عن مقدار ما يكفيه من الشراب فقال
بحسب النديم وفي ذلك يقول المفجع:

طيب لنديم يفوق طيب الراح ويحث شاربها على الأقداح
وإذا هما اجتمعا لنفس حلتا بمحلة الأرواح فى الأشباح

وقال بعضهم ما رأيت ألطف من الشراب فإنه يلائم الطباع المعتادة فى كل زمان من فصول السنة يشربه المحرور ممزوجا فيبرده والمبرود صرفا فيسخنه واليابس معتلا فيرطبه والمربوب صرفا فيجففه وأحسن استعماله فى الصيف على خضرة الجنان وتحت الظلال وعلى الميساء والورد والنسرین والبنفسج والآس والسفرجل والتفاح وفى الشتاء بخلافه فيكون فى الأكنان والفرش ولبس الأحمر والمسك وشم فتيت المسك والعنبر وفى الربيع والخريف بين ذلك لأخذهما من رطوبة الشتاء وحرارة الصيف وأحسن أوقات استعماله فى الشتاء من العصر إلى ثلث الليل وفى الصيف من بعد الظهر إلى العشاء الأخيرة، والعرب تسمى شرب الغداة صبوحا والعشية غبوقا ونصف النهار قليلا وأول الليل تخمة والسجر جاشربه، وإذا شرب الرجل فهو نشوان وإذا دب فيه الشراب فهو ثمل وإذا انتهى إلى وجوب الحد فهو سكران، فإذا زاد على ذلك فهو طافح وبالجملة فالطف ما يشرب على وجه السماء.

قال الوليد بن يزيد لابن شراعة أى المجالس أحب إليك يكون شربنا اليوم فيه، قال هل يشرب إلا على وجه السماء فوالله ما نادم الناس أصبح من وجهها.

وما ألطف جارية على بن الجهم وقد قال لها نجعل الليلة مجالسنا فى القمر فقالت له ما أولئك بالجمع بين الضرائر. قال فأى الشراب أحب إليك قالت ما ناسب روحى فى الخفة ونكهتى فى الطيب ريقى فى اللذة ووجهى فى الحسن وخلقى فى السلاسة قلت لعمرى إن فى لطف هذه العبارة لنشوة تسحر الأبواب ويكاد يستغنى بعذوبتها عن لذىذ الشراب.

وقال يحيى بن خالد الأيام أربعة يوم الريح للنوم ويوم الغيم للصيد
ويوم المطر للشرب ويوم الشمس لقضاء الحوايج .

وقال بعض مدمنى الشراب لا يقوم سرور العشى بمكروه خمار الغداة
ولا يخلص المخمور من خماره غير الخمرة وفى ذلك يقول الأعشى :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

ليعلم من لام أنى امرء أتيت المروءة من بابها

وهنا حكاية لطيفة أوردها الحريرى فى كتابه المسمى بكرة الغواص
أحببت أن أذكرها ههنا روى أن حامد بن العباس سأل وزيره على بن عيسى
وكان فى ديوان الوزارة عن دواء الخمار فأعرض الوزير عن كلامه وقال ما أنا
وهذه المسئلة فى مثل هذا المقام فخجل منه حامد وكان أبو عمرو قاضى
القضاة حاضرا فتحرك ومكن جلوسه وتحنح لإصلاح صوته ووضع كما على
كم ثم قال أعود بالله من الشيطان الرجيم . قال الله تعالى : «وما آتاكم
الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» . وقال النبى ﷺ : «استعينوا على كل
صنعة بصالحى أهلها» والأعشى هو إمام هذه الصناعة فى الجالية وقد قال :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

ثم تلاه شاعر العرب مجنون ليلى فقال :

تداويت من ليلى بليلى من الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وتبعهما على ذلك أبو نواس فقال :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتي كانت هى الداء

فتهلل وجه حامد لذلك وقال لعلى بن عيسى ما منعك يا بارد أن تحيب

بعض ما أجاب به قاضى القضاة وقد استظهر فى الجواب بقول الله ثم بقول

رسول الله ﷺ ثم بكلام العرب، ثم بقول المولدين وبين الفتوى وأدى المعنى وخلص من العهدة، فكان خجل على بن عيسى من حامد أعظم من خجل حامد منه. ومن أحسن ما يتنقل به على شرب الراح الماء القراح والتفاح. قال بعضهم عجبت لمن يشرب الراح ويتنقل بالتفاح وينكح الملاح كيف يموت.

وقال بعضهم رأيت أبا واس وفى يده كأس خمر وعن يمينه عنقود عنب وعن يساره جفنة زبيب وكلما شرب قدحا تناول عنبه وزبيبه فقلت ما هذا قال ابن وأب وروح القدس والذي أقوله إن أحسن ما يتنقل به على الشراب رشف رضاب الأحباب وما ألطف تضمين القاضى محبى الدين بن عبد الظاهر بقوله:

لقد قال لى إذ رحت من خمر ريقه أحت كؤوسا من ألد مقبل
بلثم شفاه بعد تقبيل مبسم تنقل فلذات الهوى فى التنقل

وأما ما يؤكل عليه فقال إبراهيم الموصلى أنفع الطعام لصاحب المدام سكباجة تستعمل قبله وبعده ويمسك الشراب بينهما.

الباب الخامس

فيما يجب على مستعملها من حقوق المنادمة وآداب النديم

النديم مأخوذ من المنادمة، وقال بعض أهل اللغة من الندم، إلا لأنه يندم على مفارقتها لوجود الراحة والأنس، وإما لأنه يندم على ما يتكلم به في حال سكره.

وتنقسم المنادمة إلى قسمين أحدهما إخبار بما يوافق خبرا مسموعا، والثاني أخبار بما يوافق غرضا مفتوحا كما ذكره في سلوان المطاع في السلوان الأولى وينبغي له أن يكون حسن البزة نبيل الهمة نظيف الكف نقى الظفر متاعدا لتقليمه وتخليل أصابعه وغسل يديه ومعصميه وتسريح لحيته عطر البشرة نظيف الوجه والشارب والأنف نقى الجبين مستعملا للسواك نظيف الثياب خصوصا عمامته لأن العين كثيرا ما تقع عليها مسبول الذبول وأطراف الأكمام نظيف المخفى من الملابس كالقلنسوة والسراويل والتكة والخف والمنديل والكم متطيبا بالبخور والغالية والروائح على الشعر والثياب، فإذا كملت فيه هذه الخصال كان محبوبا إلى القلوب سهلا على الأرواح وإلا كان مستقلا في العيون بغیضا في النفوس كما قيل في أبي يعلى الكاتب القرشي:

نعمة الله لا تعاب ولكن ربما استنقلت على أقوام
لا يليق الغنى بوجهه أبى يعلى ولا نور بخجة الإسلام
دنس الثوب والعمامة والبر ذون والنعل والقفاز والغلام

وتختلف آداب المنادمة باختلاف المجالس فإذا كان مثله أو قريبا منه فالأولى إطراح التكلف وما يؤدي إلى حصر وضيق، فقد قال ابن المعتز الحق في المنادمة ترك التحفظ. وكان يقال أن من الأدب ترك الأدب عند من لا

تحتشمه وتهابه وقلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمجامحة فى الشراب والتغافل عن رد الجواب وإدمان الرضا وإطراح ما مضى واستعمال ما حضر وإحضار ما تيسر وستر العيب وترك العتب والطرب بلا هرج ولا صياح، وترك الافتخار بالحسب والنسب، وأما من نهابه ونخافه كالملوك والخلفاء والأمراء والوزراء، فإن لها شرأى صعبة ومسالك ضيقة ينقبض الخاطر عند سماعها فضلا عن مشاهدتها وعيانها وهى أن يجلس فى مرتبته بحسن أدب وسكون جاث من غير اتكاء ولا استناد إلى جدار أو مخدة ولا عبث بثوب ولا لحية ولا يظهر شئ من قدمه ولا خفه إن كان لابس خف.

ولا يستعمل تدليك اليدين وفرقة الأصابع واللعب بالخاتم والثاوب وينهض لنهوضه ويجلس لجلوسه ويدنو إذا سادناه ولا يبتدئ الملك بكلام ولا يستعيده منه، وإذا سأل نهض قائما على قدميه وأجاب بأوجز عبارة وألطف إشارة، ثم لا يجلس حتى يأذن له ولا يكن من شأنه التعزية ولا التهنة ولا يشمت عند العطاس ويترك التبخر والعبث بالفاكهة والرياحين والأأهار والتناول للشمامات والإكثار من التنقل على الشراب ولا يعرض الفاكهة والرياحين عضا بل يقطع منها حاجته بالسكين قطعاً ولا يكثر شم الأزهار والرياحين ولا يدير اليد فيه ولا قطع رأيه ولا ينفضه عند أخذه ولا يستحث الشراب ما لا يطيق فيزول عقله وليقتصر على ما يعلم أنه يقوم به فإذا أحس من نفسه بالسكر أسرع إلى القيام وانصرف وهو يملك نفسه فرجا زل لسانه أو ذهب عقله وجنانه فغاب عن التوفيق وخاطب الملك بما لا يليق وكان سبباً لهلاكه بمداومته على الشراب وانهماكه. وقد قال عبد الله بن المعتز:

يموت الفتى من عشرة بلسانه وليس يموت المرء من عشرة الرجل
فعرته من فيه ترمى برأسه وعثرته بالرجل تبرأ على مهل

ويقال أن أول من جعل لندمائه أمانة ينصرفون بها من مجلسه إن أراد كسرى أنوشروان، وذلك أنه كان يمد رجله فيعلمون أنه يريد قيامهم فينصرفون وتبعه الملوك على ذلك، وكان فيروز يدلك عينيه وبهرام يرفع رأسه لى السماء، وكان فى الإسلام معاوية يقول العزة لله وعبد الملك بن مروان يلقى المحبرة من يده .

قلت : ومن ذلك ما يفعله القضاة فى زماننا هذا من غلق الدواة، ويحكى أنه قيل لبعض البخلاء أن لكل رئيس علامة ينصرف بها ندمائه فما علامتك قال إذا قلت يا غلام هات الطعام والأدب مع الملك ومن يقاربه من أعيان الملك إذا نام أن يتنحى جلساؤه فيكونون بموضع يقرب منه ولا ينصرفون عنه بل يلحظونه بأعينهم حفظاً له ولا يتكلمون خشية من انتباهه وقد حكى أن الرشيد وكل جماعة من أهل العلم بملازمة ابنه المأمون وهو غلام فبات عنده الحسن بن زياد واللؤلؤى فبينما هو يحادثه إذ نعى المأمون فقال له الحسن نمت أيها الأمير فاستيقظ وقال سويقى ورب الكعبة، ثم قال يا غلام خذ بيده فأخرجه وبلغ ذلك الرشيد فاستصوبه وتمثل بقول الشاعر :

وهل ينبت الخطى إلا وشيحة ويغرس إلا فى منابتها النخل

ومن مستحسن الأخبار فى ذلك ما قيل أن قطر النداء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون لما زفت إلى المعتضد بالله أحبها حباً شديداً وأنه وضع يوماً رأسه فى حجرها فنام فتلطفت فى إزالة رأسه من حجرها ووسدته وخرجت من البيت، فلما استيقظ ناداها فأجابته من قرب فقال أسلمت نفسى إليك فذهبتى عنى فقالت والله لم أزل كالفة لأمير المؤمنين . قال فما أخرجك عنى قالت إن مما أدبتنى به أنى لا أجلس مع النيام ولا أنام مع الجلوس فاستحسن ذلك منها وينبغى أن يكون له مع شرف الملوك تواضع العبيد ومع عفاف النسائك مجون الفتاك ومع وقار الشيوخ مزاح الأحداث لأنه مضطر إلى كل

واحدة من هذه الخصال فى حالة لا يحسن فيها غيرها ويحتاج أن يجمع له من قوة الخاطر ما يفهم به ضمير الرئيس الذى ينادمه على حسب ما ييلوه من خلائفه وتعلمه معانى لطفه وإشارته على أنه كان من الخلفاء والأمراء من لا يستعمل هذه الشرائط ويجرى مع ندمائه مجرى الأكفاء والأقران، بل ربما خدم ندمائه وغلماناه بنفسه فإذا انتهى مجلس اشراب عاد إلى هيئته وعظمته.

قال رجاء سهرت ليلة عند عمر بن عبد العزيز فغشى المصباح ونام الغلام فقلت يا أمير المؤمنين لو أذنت لى أن أقوم لأصلحه. قال عمر بن عبد العزيز يا رجاء ليس من مروءة الرجل أن يستعمل ضيفه، ثم حط رداءه عن منكبه وانتهض قائماً فصب فى المصباح زيتاً وأصلح الفتيلة ومسح يده، ثم رجع وأخذ رداءه وجلس وقال قمت وأنا عمر وجلست وأنا عمر فرحم الله تعالى روحه الطاهرة.

وحكى عن يحيى بن أكرم قال بت ليلة عند المأمون فانتبه فى بعض الليل فظن أنى نائم فعطش ولم يدع الغلام لثلاً أنسبه، وقام متسللاً خائفاً هادياً فى خطاه حتى أتى البرادة فشرب ثم رجع وهو يخفى صوته كاه لص حتى اضطجع وأخذه سعال فرأيته يجمع كفه فى فمه كيلاً أسمع سعاله وطلع الفجر فأراد القيام وقد تناومت فصبر إلى أن كادت تفوت الصلاة فتحركت فقال الله أكبر يا غلام نبه أبا محمد فقلت يا أمير المؤمنين رأيت بعينى جميع ما كان الليلة من صنيعك ولذلك جعلنا الله لكم عبيداً وجعلكم لنا أرباباً.

وينبغى أن يكون ذهنه وعقله وإصغاؤه ومجاميع قلبه كلها مع الملك لا يتشاغل عنه ولا يلتفت إلى غيره مصغياً لكلامه ثابت الرسوخ متمكن العقل إلى غير ذلك من المسالك الضيقة ولكن هذا كله فى زمن المتقدمين، وأما زماننا هذا فالذى بلغنا أن مجالس أحد الناس من التجار والعوام مثلاً ألطف ذاتاً وأكثر آداباً من مجالس الملوك والوزراء والكتاب والله أعلم.

نادرة: بينا أبو العباس السفاح يحدث أبا بكر الهذلي إذ عصفت الريح فرمت طشتًا من سطح إلى المجلس فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلي ولم تزل عينه ملاحظة السفاح فقال ما أعجب شأنك يا هذلي. فقال إن الله تعالى يقول ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه وإنما لى قلب واحد فلما غمره السرور بحضرة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال فلو انقلبت الخضراء على البيضاء ما أحسست بها فقال السفاح لئن بقيت لأرفقن معك ضبعًا لا تطيق به السباع ولا تنحط عليه العقبان.

وقال الشعبي أخطأت عند عبد الملك أربعًا حدثني بحديث فاستعدته فقال أما علمت أنه لا يستعاد أمير المؤمنين وقلت حين أذن لى أنا الشعبي فقال ما أدخلناك حتى عرفناك وكنيت عنده رجلا فقال أما علمت أنه لا يكنى أحد عند أمير المؤمنين وسألته يكتبني حديثًا فقال إنا نكتب ولا نكتب.

وعطس الرشيد يوما فشتمه الأصمعي فتكلف الرشيد الرد عليه فلما خرج عاتبه الفضل بن الربيع فشكاه الأصمعي إلى الرشيد فقال أصبت السنة وأصاب الأدب.

وينبغي للنديم أن يكون فصيحًا بليغًا عالمًا مغنيًا فيجرى مجرى إبان اللاحقى بما وصف به نفسه للفضل بن يحيى البرمكى وذلك أنه ورد على أبوابه ليعرض نفسه وأدبه عليه فأتى محمد بن بردان الثقفى وقال له إن رءيت أصلحك الله أن تعرض قصتى على الأمير قال وما فيها قال أعرض نفسى وأدبى عليه. قال عند الأمير مائة ألف مثلك فأتى منصور بن هاشم وسأله عن ذلك فقال له منصور فهل لك فيمن دون الأمير ونشاطرك الضياع والأموال والرقيق قال قد نازعتنى نفسى إلى شىء لا بد أن أعطيها شهوتها منه فتناول قصته وقدمها للفضل بن يحيى فإذا فيها:

أنا من بغية الأمير وكنز	من كنوز الأمير ذو رباح
كاتب حسب أديب خطيب	ناصر زاهد على الفصاح
شاعر مفلق أخف من الر	يشة لما تكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة ونقاد	أنا فيه قلادة لوشاح
حية سبطة ووجه مليح	وانقاد كشعلة المصباح
وكثير الحديث من ملح الذ	ناس بصير بخافيات ملاح
كم وكم خبأت عندى حديثاً	هو عند الأمير كالتفاح
أيمن الناس طائراً يوم عيد	فى غداة وغداة ورواح
أعلم الناس بالجوارح والخي	مل وبالحرد الحسان الملاح
كل هذا جمعت والحمد لل	ه على أننى ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر كم	يه ولا الفاتك الخليع الوقاح
لو دعانى الأمير عاين منى	سمرا كالجبل الصياح

قال فدعى به فلما دخل أتى كتاب من أرمينية فرماه إليه وقال له أجب عنه فأجاب من ساعته فأمر له بمائة ألف درهم وكان أول داخل وآخر خارج وركابه محاذيا لركابه .

وفاخر كاتب نديماً فقال أنا معونة وأنت مؤنة، وأنا للجد وأنت للهزل، وأنا للحرب وأنت للسلم، وأنا للشدة وأنت للذة. فقال له النديم: أنا للنعمة وأنت للخدمة، وأنا للحضرة وأنت للمهنة تقوم وأنا جالس، وتحشم وأنا مؤانس، تذب لراحتى وتشقى لما فيه سعادتى، وأنا شريك وأنت معين، كما أنك تابع وأنا قرين .

ولما كان مجلس الشراب موضوعاً للاستكثار من اللذات فالأولى أن
يجمع من الندماء من اتصف بالحدق واليقظة والأشعار والآداب والنوادر
وأنواع المغنا والطرب، فيكون للحديث نوبة وللمغنا أخرى.

وحكى عن بشار أنه قال: لا تجعلوا مجلسكم حديثاً كله ولا غناء كله
ولا هزلاً كله ولا جداً كله، ولكن تارة وتارة فإن العيش خلس.

وقال إبراهيم بن المهدي لذة العيش في ثلاث: منادمة الأحاب والمعاورة
الشراب ومذاكرة الآداب، ولكن كرهوا الأحاديث الطوال وأمروا بالإيجاز
والاختصار. قال العطوي:

إذا حدثت فاكس الحديث الـ مذى حديثه ثوب اختصار
فما حث النبذ بمثل شدو الأـ غانى والأحاديث القصار
وقال ابن المعتز:

وندامى فى شباب وحسن تلفت ما لهم نفوس كرام
بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواء كلام
وغناء يستعجل الراح بالرا ح كما ناح فى الغصون الحمام
فكان السقاة بين النداما ألفات بين السطور قيام

وتلطف يزيد بن معاوية إلى الغاية بقوله:

ولى وله إذا الكاسات دارت وفى سحر تحل عرى الهموم
محادثه ألد من الأمانى وبث جوى أرق من النسيم
وقال أبو نواس:

لا يطيب الشراب إلا لقسوم جعلوا نقلهم عليه الوقارا
فهمو يسمعون صوتاً إذا مر وا تناشدوا الأشعارا
لا كقوم فى ضجة وصياح كنهيق الحمار لاقى الحمارا

ومن أدب النديم أن يكتب أحسن ما يسمع ويحفظ أحسن ما يكتب
ويورد أحسن ما يحفظ فهذا هو لب اللب وأن لا يتعاطى كلاماً أجنبياً عن
المقام فالتاس يقولون لكل مقام مقال . قال أبو نواس :

وإذا جلست إلى المدام وشربها فاجعل حديثك كله فى الكاس

ضمنه ابن أبى حجلة فى مليح معذر فاستحقه بزيادة التورية فى قوله :

يا صاح قد حضر الشراب ومنيتى وحظيت بعد الهجر بالإيناس
وكسى العذار الخد حسناً فاسقنى واجعل حديثك كله فى الكاس

وأما أواسط الناس فينبغى أن لا يستكثروا من الندماء ويقتصروا على
القليل فإن الكثرة سبب إذهاب المال ووجود العداوة فربما لا يقدر على رضاهم
وفقدان المسرة وتعب القلب والجسم :

وإذا صفا من زمانك واحد فهو المراد وأين ذاك الواحد

ويعجبني قول بعضهم :

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوى العقول
وقد كانوا إذا عدوا قليلا فقد صاروا أقل من القليل

وينبغى أن لا يصطفى نديماً حتى يختبره بأن يسأل عنه من صديقه أو
خليله أو رفيقه كما قال بعضهم :

إذا ما أردت إخفاء امرئ فسل كيف كان لإخوانه
فإما رضيت فأحببته وإما ترغبت عن شأنه
ثم بعد ذلك تجرب به بأن تغضبه في الصحو فإن وجدته حمولا مطاوعا
قبولا لما تأمره به يصفى وداده حاضراً وغائباً مساعداً لك في الشدائد فلتعتمد
عليه فقلما يوجد هذا النديم وفي هذا المعنى :

إذا كنت مختاراً لنفسك صاحباً فمن قبل أن تبده بالود فاغضبه
فإن كان في حال التعدي راضياً وإلا فقد تجربته فتجنبه
والناس مختلفون في الشرب فمنهم من يرى الانفراد ومطالعة الكتب
وإعمال الفكر في تصنيف العلوم والآداب كما حكى عن الرئيس ابن سينا أنه
قال كنت أستعين على مصنفات علمي باستعمال السير من الخمر المصلوح
بالماء وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

من على يسرني خزانة خمر وعلى يمتني خزانة كتب
فإذا ما طربت أعملت كاسي وإذا ما صحوت أعملت قلبي
ومن يرى الانفراد أيضاً الفارابي وله في ذلك أبيات مشهورة أثارت
حذفها لعدم انسجامها ودقتها .

قال أبو العينا: رب وحدة أنفع من جليس ووحشة أمتع من أنيس .
وقال بعضهم: رأيت أعرابياً جالساً تحت ظل شجرة ومعه ركوة وهو
يشرب قدحاً ويصب في أصل الشجرة قدحاً فقلت له ما هذا؟ قال: هو نديم
لا يعربد على يمنحني ظله ويحمل عني كله .

ودخل محمد بن حرب على العناني فوجده يشرب وبين يديه كلب
صيد وهو يشرب قدحاً ويصب للكلب قدحاً، وكلما أكل طعاماً أو نقلاً رمى
إلى الكلب منه. فقال له أتنادم كلباً قال نعم يكف عني أذاه ويحرسني من
أذى سواه، يشكر قليلي ويحفظ مبيتى ومقيلى، وهو من بين الأنام خليلى.
قال ابن حرب فتمنيت والله أن أكون كلباً لأحوز منه النعت وأنشد فى المعنى:

وأشرب وحدى من كراهيتى الأذى مخافة شر أو سباب لئيم

وما أحسن قول الشيخ صفى الدين الحللى:

إذا لم أجد للراح خلا موافيا فلى بى أنس كامل حين أشرب
لسانى يغنينى وفكرى منادى وكفاى تسقينى وقلبى يطرب

ومنهم من يرى اجتماع الندماء واختلفوا فى ذلك فمنهم من يختار
واحداً لأنه أقل ما يحصل به الغرض فلا يتجاوز إلى غيره فيصير المجموع
اثنين ويسمونهما منشاراً، ومنهم من يختار اثنين فيكون المجموع ثلاثاً فربما قام
أحدهم لحاجة فيجد الآخر من يؤانسه. وأنشدوا فى المعنى:

خلان لى أمرهما عجيب كلاهما لخله مجيب

مالى من نجواهما نصيب كأتنى بينهما غريب
ومنهم من يقول أربعة فربما تحدث أحدهم مع الآخر فيجد الآخر من
ينادمه.

قلت: وهذا هو القدر المتفق عليه. قال بعضهم: من زاد فى الندماء
على أربعة فقد فوت على نفسه السرور وضعفه.

وسئل إسحق النديم عن الندماء فقال واحد هم، واثنان غم، وثلاثة
نظام، وأربعة تمام، وخمسة مجلس، وستة زحام، وسبعة جيش، وثمانية
عسكر، وتسعة اضرب طبلك، وعشرة ألقى بهم حيث شئت.

وبعضهم يقول: ثلاثة ندمان وأربعة بستان وخمسة مارستان إلى غير ذلك من العبارات الظريفة والإشارات الطيفة والذي أقوله أن هذه أمور نسيية وخيالات وهمية فقد يوجد صفاء العيش مع الكثير ويفقد مع السير لا بد في بيان ذلك من تقديم مقدمة وهى أن الخمر ليست مقصودة لذاتها ولا مقصورة على لذاتها بل هى وسيلة لنيل المطلوب والفوز بلقاء المحبوب كما قال الحلى:

ثنت شمائله كاس الشمول فما قابلت مغتتما إلا لقبيلته
فالشكر للسكر لولاه لما ظفرت كفى بتسهيل صعب من عريكته

وقال آخر:

جهلت على الحبيب لفرط سكرى فقبلت الثنايا والمحيا
رشفت رضابه أغى رشادا على كلفى به فازددت غيا
وما درت الوشاة بنا لأنى نهبت العيش فى جاه الحميا

إذا علمت ذلك فبعيد على من له ذوق سليم أو طبع مستقيم أن تتوق نفسه بعد حصوله على الحبيب بحضور واش أو رقيب فالغيرة عند أهل الأشواق معروفة وفى أمثالهم موصوفة. قال يزيد بن معاوية:

أغار على أعطافها من ثيابها إذا لبستها فوق جسم منعم
وأحسد شربات تقبلن ثغرها إذا وضعتها موضع اللثم فى الفم

وقال جمال الدين بن مطروح:

فلو أضحى على تلفى مصرا لقلت معذبى بالله زدنى
ولا تسمع بوصلك لى فإنى أغار عليك منك فكيف منى

وقالت حفصة المغربية:

أغار عليك من غيرى ومنى ومنك ومن مكانك والزمان
ولو أنى خبستك فى عيونى إلى يوم القيامة ما كفانى

وقال سراج الدين الوراق:

أغار عليه من ضميرى فياله هوى رابنى حتى اتهمت جوارحى

وقال ابن نبهان:

إنى أغار من النسيم إذا سرى يا ربح عرفك خشية من ناشق
وأود لو أسهدت لا من علة حذرا عليك من الخيال الطارق

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى وبالع:

وتركى اللحاظ تروم قتلى عقارب صدغه فأقول رومى
ومن شغفى بحسن القد منه أغار على الغصون من النسيم
وكأنى بمنتقد يقول إن فى اجتماع الإخوان واللفاء من الندمان ما يولد
الأفراح ويطيب به شرب الراح فأقول له أين أنت من قول صفى الدين
الحلى:

أدم يا رب خلواتى بحبى لأقضى بالتواصل منه دينى
ولا تجعل هناك سوى لسانى سفيراً بين أحبابى وبينى
وإن قدرت إنسانا يرانا بحققك فليكن إنسان عيني

وقال النجيب بن الدباغ:

يا رب إن قدرته لمقبل غيرى فلمسواك أو للاكؤس
وإذا حكمت لنا بصحبة ثالث يا رب فليك شمعة فى المجلس
ولئن قضيت لنا بعين مراقب يا رب فلتك من عيون النرجس
بل لم يصبر بعضهم على وقاحة عيون النرجس فقال :

غضى جفونك يا عيون النرجس فعسى أفوز بقبلة من مؤنسى
فلقد تحير إذ رآك شاخصا ترمينه بلواظ المتفرس
وقال الصفى الحلى :

أقول وطرف النرجس الغض شاخص إلينا وللنمام حولى المام
أيا رب حتى فى الحداثق أعين علينا وحتى فى الرياحين نمام
وما ألطف قول مجير الدين بن تميم :

كيف السبيل لأن أقبل خد من أهوى وقد نامت عيون الحرس
وأصابع المنشور تومى نحونا حسدا وتغمزها عيون النرجس
والأطف منه قوله :

كيف السبيل للثم من أحبته فى روضة للزهر فيها معرك
ما بين منشور وناضر نرجس مع أقحوان وصفه لا يدرك
هذا يشير بإصبع وعيون ذا ترنوا إلى وثغر هذا يضحك

فليت شعرى من لا يصبر على عيون النرجس غيره على حبيبه ما حال
قلبه بمعاينة واشيه ومشاهدة رقيبه ولولا خشية الإطالة للمأت الأوراق بإيضاح

هذه الدلالة وحيث فقول إسحق واحد هم واثنان غم إلى آخره إنما هو اعتبار الأعم الأغلب وحيث لم يكن حبيب (فمن لم يجد ماء تيمم بالتراب) وأما إذا كان الحبيب موجودا فكل الصيد فى جوف الفرا لا سيما إذا كان حسن الصوت والفكاهة والمحاضرة فطلب المزيد عليه من أعظم المفاسد:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

بل ربما استغنى عن مجلس الشراب برشف ثناياه العذاب وأحسن ما قال بعض اللطفا فيه:

خداه وردى والعدار بنفسجى والريق خمري واللواظ نرجسى
فكأننى من خده وعداره ورضابه ولحاظه فى مجلس
وتلطف إبراهيم المعمار فقال:

إذا كان شربى من سلافة ريقه غنيت به عن خمر كاس وإبريق
ومنه غذاءى لست أختار غيره طعاما وحسبى أن أظل على الريق
وقال ابن الزين ليكم:

وجعلت غصن قوامه لى شمعة فى مجلسى وخطوده تفاحى
ومن اللواظ نرجسى وعداره آسى ومعسول المرافف راحى
والوجه بدرى والثنايا أنجمى والشعر ليلى والجين صباحى
وأقول يا قلبى لقد نلت المنى جمع الحبيب مجالس الأفراح

ويعجبنى قول أبى العلاء المعرى:

يقول فى البستان للعين نزهة وفى الراح والماء الذى غير آسن
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها ففى وجه من تهوى جميع المحاسن

والطف منه قول الشيخ برهان الدين القيراطى :

أباح لى نرجس الحـاظه فى مجلس ما فيه ما نكره
قلت ورد الخـد جد لى به أيضاً فقال الكل فى الحضـره

وتلطف ابن عبد الظاهر بقوله مضمناً :

لقد قال لى إذ رحت من خمر ريقه . أحث كؤوسا من ألد مقبل
بلثم شفاهى بعد تقبيل مبسمى تنقل فلذات الهوى فى التنقل

ولنرجع إلى ما كنا فيه ، واعلم أن الخمر مستقر للرجال وهو محرك
العقول يحرك ما يجد من خير وشر ويبرزه من القوة إلى الفعل فينبغى أن
يعتزل فى الشراب الحمقى والسفهاء والجهال وفى ذلك يقول أبو نواس :

والخمر قد يشربها معشر ليسوا إذا عدوا بأكفائها

وقال آخر :

الكاس يظهر ما لا بست من دنس إذا تـمشت حميا الكأس فى الراس

وقال آخر :

على قدر عقل المرء فى حال صحوه يؤثر فيه الخمر فى حال سكره
فياخذ من عقل كثير أقله ويأتى على العقل اليسير بأسره

وقال آخر :

وقد تعرف الجهال من حلمائنا إذا ما تعاطينا الكؤوس تعاطيا
تزيد حمياها السفية سفاهة وتترك ألباب الرجال كما هيا
وجدت أقل الناس عقلا إذا انتشى أقلهم عقلا إذا كان صاحيا

وقال آخر:

لا تشرب الراح إلا مع أخ ثقة واختر لنفسك حرا طيب السلف
فالراح كالريح إن مرت على عطر طابت وتخبث إن مرت على الجيف

وقال عمارة بن حمزة الهندي يا أمير المؤمنين ما منعك من مجالسة والية
ابن الحباب الأسدي فإنه رقيق الشعر ظريف عربي شريف قال الذي سبقني
بقوله:

قلت لساقينا على خلوة أدن كذا رأسك من راسي
ونم وضع صدرك لى ساعة إني امرء أنكح جلاسي

وقال المأمون الشراب ستر فانظر مع من تهتكه، وقالوا ثلاثة لا يجالسون
النديم: المعربد والمغنى البارد والجلس الثقيل. قال النظام إذا علم الثقل أنه
ثقل فليس بثقل. وقال الجمار حرم الشراب على ثلاث عشر شخصا: من
غنى الخطأ، ولحن المغنى، والذي يتكئ على اليمين، والمستكثر من النقل،
ومن كسر الزجاج، وسرق الريحان، وبلى ما بين يديه وقطع الكلام وحبس
أول قدح، وطلب العشاء وأكثر الحديث والمتمخط في منديل الشراب، وبأث
فى موضع لا يحتمل المبيت.

وقال أبو نواس: الكرم ثلاثة عناقيد: عنقود التذاذ، وعنقود سكر،
وعنقود عريضة. قال بعضهم:

لا تسقنى الكاس إلا وهى مترعة لكى ترى حسن أقوالى وأفعالى
وما أعربد فى الدنيا على أحد إذا سكرت بها إلا على مالى

وقال بعضهم علامة الكرم إذا أخذ منه الشراب الاستحيا والتودد

والفرح والسرور، وبذل ما فى يده فإذا أخذته أريحية الجود هزته نشوة
الطرب، فإذا بلغ النهاية فى شربها توسد يساره ونام حميداً كريماً ومن
علامات اللثيم المماراة والسفه والترفع والتكبر وقتل الشارب والتلفت إلى
العريضة وشدة الطيش فصاح وناح، وربما بكى وعوى عوى الذئاب ونبح نبح
الكلاب، فهذا الماء يحرم عليه، فكيف الشراب وفى المعنى الأول يقول
عنيرة:

وإذا سكرت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمايلى وتكرمى
وقال غيره:

وإذا سكرت وهبت ما ملكت يدى من غير إملاق ولا إشفاق
وإذا صحوت وعادتنى همتى أصبحت ندمانا لترك الباقي

وفى المعنى الثانى يقول صاحبنا المولى الفاضل شهاب الدين الحجازى:
فى حندس الليل أتانا فستى ونادم القوم فبئس النديم
فقلت للأصحاب لما أتى قد جاءنا فى جنح ليل بهيم
وقال أبو نواس:

الخمر طيبة وليس تمامها إلا بطيب خلألق الجلاس

وقال آخر:

لا تشرب الراح إلا مع أخ ثقة إن سر غنا وإغنيته طربا
يعطيك صمتا إذا حدثه وإذا شربت حيا وإن حبيته شربا
يزيده الراح طيبا والغنا طربا والسكر عقلا وإسماع إلا ذا أدبا
فاشدد يدك عليه إن ظفرت به وأكثر مودته لا تكثر الذهبا

وما أحسن ما قاله الأديب الفاضل أبو عبد الله محمد بن الرفا الرصاف
وقد مر بروضة فتذكر جلوسه فيها مع رفقة كانوا أعزاء على قلبه :

سلى خميلتك الريا بأية ما كانت تزف بها ريحانة الأدب
عن فتية نزلت أعلى أسرتها عفت محاسنهم إلا من الكتب
محافظين على العليا وربّة ما هزوا السخايا قليلا بابنة العنب
حتى إذا ما قضوا من كاسها وطرا وضاحكوها إلى حد من لطرب
راحوا رواحا وما زيدت عمايمهم إلا التفات الصبا في ألسن العذب

وما أحسن تشبيه السرى الرفا الموصلى :

وفتية زهر الآداب بينهم أبهى وأبهج من زهر الرياحين
مشوا إلى الراح مشى الرخ وانصرفوا يمشون من شربها مشى الفرازين
وينبغى أن يتحمل المكروه والأذى ويتصف بالحلم والوقار كما قال
بعضهم :

إذا ما شربت الراح أبدت محاسنى وجادت بما حازت يداى من الوفى
وإن سبنى جهلا نديمى لم أزد على الشرب سقاك الله طيبة النشر
وقال بعضهم أيضاً :

يخاطبنى السفية بكل قبح وأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وأزيد حلما كعود زاده الإحراق طيبا
ومما يجب على ذوى الرياسة والمروءة أن يسامحوا نديمهم إذا وقعت منه
هفوة وغفلة بل ييسطون له العذر من غير تعنيف ولا عتب وفيه يقول خالد :

ولست بلاح لى نديما بزله ولا هفوة كانت ونحن على الخمر
وقال كثير عزة:

ومن لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه ميت وهو عاتب
ومن يتتبع طالباً كل عترة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب
وعربد فتى من بنى هاشم على ندمائه فأراد عمه معاقبته فقال يا عم إنى
زسأت وليس معى عقلى فلا تسيء ومعك عقلك، وطويت بساط الشراب
على ما فيه من خطأ وصواب. وقال المأمون: مجلس الشراب يستوى فيه
الكبير والصغير والرفيع والوضيع والحر والعبد وهو بساط يطوى فمتى طوى
لم ينشر أبداً. قال بعضهم:

إنما مجلس الشراب بساط فإذا ما انقضى طوينا بساطه
وحضر بعض اللطفاء مجلس شراب فعربد وعليه عمامة فضاعت
عمامته فلما أصبح طلب العمامة من الحاضرين فقالوا له أما سمعت قول
الشاعر:

إنما مجلس الشراب بساط فإذا ما انقضى طوينا بساطه
فقال صاحب العمامة اشتهى أن تبسطوا لنا هذا البساط حتى تأخذ
عمامتى وبعد ذلك اطووه فضحكوا منه وأعطوه عوضها وإذا كان بساطه
يطوى فينبغى لمن حضره أن لا يتحدث بما وقع فى مجلس الشراب ولا يفوه
بشيء منه فإن فيه من المفاسد ما لا يحتاج إلى إقامة شاهد قال بعضهم:

إن الشراب له شرط سمعت به أن لا يعاد حديث السكر فى الصحو
وتلطف بعضهم بقوله:

ما يكتُم السر إلا كل ذى ثقة
فالسّر عندى فى بيت له غلق
وبالغ الخطير بن زكريا:

وأكتم السر حتى عن إذاعته
وذاك أن لسانى ليس يعلمه
عن المسير به من غير نسيان
قلبى بسر الذى قد كان ناجانى

ولكن اعتذر بعضهم عن ذلك بالطف عبارة، وقال:

وما السر فى الأحرار إلا وديعة
وأجاد أبو نواس بقوله:

ولما شربناها ودب دبيبها
إلى موضع الأسرار قلت لها قفى
مخافة أن يسطو على شعاعها
وتظهر ندمانى على سرى الخفى
وينبغى للنديم أن يكون أطوع للجماعة من فعلهم وأتبع لهم من ظلهم.
وقال أبو نواس:

وندمان يرى عيباً ليه
إذا نبهته من نوم سكر
وليس بقائل لك إيه عنى
ولكن اسقنى ويقول أيضاً
بأن يمشى وليس له انثناء
كفاه مرة منك النداء
ولا مستخبر لك ما تشاء
عليك الصرف إن أعياك ماء
فلا عصر عليه ولا عشاء
وكل صلاته أبدا قضاء

وقال العفيف التلمساني وتلطف إلى الغاية :

تعلم من مرافقة النديم مطاوعة الأراكسة للنسيم
وعاشره بأخلاق فإني وحقك عبيد رق للنديم
وعاطيه أحاديثي وكاسي فيسكر بالحديث وبالقديم
وقال الجاحظ :

أرى للكاس حقا لا أراه لغير الكاس إلا للنديم
هو القطب الذي دارت عليه رحي اللذات في الزمن القديم
وقال آخر :

ألم تعلم أن النديمين ما صفا ودادهما أو أنصفا أخوان
فإن رضاع الكاس أوجد حرمة وحقا علينا من رضاع لبان
ومن كلامهم لا معرفة أفضل من معرفة الكنية ولا حرمة أعظم من
حرمة العشرة ولا نسب أقرب من رضاعة الكاس وقال المأمون :

أنا وأنت رضيعا قهوة لطفت عن العيان ورقت عن مدى القدم
ما بيننا رحم إلا إدارتها والكاس حرمتها أولى من الرحم

ومن الأدب لمن يتناول القدح أن يشمه وينظر فيه ويحرك رأسه مع
المحادثة عليه قليلاً والإصغاء إلى من يغنى قبل انقطاع صوته هذا كله وكأسه
محمول بين أنامله ، لا يضعه على الأرض فليس لوضعه فائدة غير انصبابه
وإفساد ما تحته من الفرش ومن الأدب أن لا يكتر من تناول النقل واستعماله
على الشراب فإنه ينفخ المعدة ويهيج الشراب ويدعو إلى القىء ويحط من قدر
صاحبه .

وما ألطف بعض الظرفاء وقد رأى شابا يكثر من التنقل فى جلس
الشراب فقال أراك رجلا تشرب النقل وتنقل بالشراب، ومن آداب المنادمة إذا
أخذ أحدهم حظه من الشراب وانتهى إلى الكفاية لا يزيده ولا يثقل عليه ولا
يحلف على الشراب فإن القصد بسط المجلس وانشراحه، وقد حصل فلا
يتوهم زيادة سروره بذلك فرجما كان ضرره أكثر فكان كقول القائل:

رام نفعا فضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقا

ولله در من قال:

الخمر عندى حرام فلست أشرب خمرا
كتبت عهدة خمر فرحت سكران شهرا

وقال سعيد بن عون وقيل ليزيد بن معاوية:

وإن نديمى غير شك مكرم على وعندي من هواها الذى أَرْضَى
ولست لمن قد نام عندي بموقف ولا مسمع يقظان شئ من الأذى
ولست له فى فضلة الكاس قائلا ليشربها شكرا بحسن وقد أبى
ولكن أفديه وأكرم وجهه وأشرب ما أبقى واسقيه ما اشتهى

ولله در البحتري حيث قال:

بت أسقيه صفر الراح حتى وضع الكاس مائلا يتكفى
قلت عبد العزيز تفديك روحى قال لبيك قلت لبيك ألفا

وما أحسن قول أبى نواس:

ولست بقائل لنديم صدق وقد أخذ الشراب بمقلتيه
تناولها وإلا لم أذقها فإخذها وقد ثقلت عليه

ولكنى أدير الكاس عنه إذا استعفى بغمزه حاجبيه
وإن طلب الوساد لنوم سكر مددت وسادتي منى إليه
وتلطف ابن أبيك فى اعتذاره عن قلة الشراب فقال:

وحقك لو علمت بقدر شربى لما جرعتنى إلا بمسعط
وحسبك أن خمارا بجنبى أمر بيباه فأكاد أسقط
وبالغ بعضهم فقال:

أمر بالكرم إن عبرت به تأخذنى نشوة من الطرب
أسكر بالكاس إن عزمت على الـ شرب غدا إن ذا من العجب
وقال ابن صاحب تكريت:

وأشرب من ماء توهمت أنه سقى كرمها من قبل يمزجه الخمر
سطرت بكفى عهد الكرم مرة فاسكرنى حيناً بها ذلك السطر

وقال الشيخ شرف الدين بن الفارض:

ولو نظر الندمان ختم إنائها لأسكرهم من دونها ذلك الختم
وفوق لواء الجيش لو رقم اسمها لأسكر من تحت اللوا ذلك الرقم
فإذا استكمل النديم هذه الأوصاف فقد عقدت الناصر على محاضرتة
وأشير بالأصابع إلى منادمتة واستحق قول القائل:

بروحى من نادمتة فوجدته أرق من الشكوى وأصفى من الدمع
يوافقنى فى الجد والهزل دائماً فينظر من عيني ويسمع من سمعى

وأجاد بعضهم فى وصفه بقوله :

ولى نديم كثير الود ذو أدب أرى شمايل فيه كلها أدب

كأنه كأس خمر من لطافته ودر ألفاظه من فوقها حبيب

وسئل بعضهم عن نديمه فقال والله هو ريحانتى على قدحى وقال آخر

فى نديم بديع الجمال :

فديت من نادمته فى مجلس قد عطلت فيه أباريقه

طلبت وردا فأبى خده ورمت راحا فأبى ريقه

وقال آخر فيه :

وشــادــن قــلــت لــه هل لك فى المنادمة

فــقــســال كــم مــن عــاشــق ســفــكــت بــالــمــنى دــمــه

وقال الشيخ العلامة بدر الدين محمد بن الدمامنى :

ورب نهار فيه نادمت أغيدا فما كان أحلاه حديثا وأحسنا

منادمة فيها منأى فحبذا نهارا تقصى بالحديث وبالمنا

وقال الشيخ تقى الدين بن حجة فى مליح محاضر :

يطارحنى بأبيات ولكن يناقضنى إذا طال اجتماعى

فإن أنشدت أشعار السلام يطارحنى بأبيات الوداعى

وللمقر المرحوم فخر الدين بن مكاس سقى الله ثراه أرجوزة لطيفة فى

أدب النديم سماها عمدة الحرفا وقدوة الظرفا لا بأس أن يحسن إيرادها فى

ختام هذا الباب .

هل من فتى ظريف	معاشر حريف
يسمع من مقالى	ما يبهر اللالى
أمنحه وصية	سارية سرية
تنير فى الدياجى	كلمة السراج
ماجنة خليعة	بليغة مطبوعة
رشيقة الألفاظ	سهل للحفظاظ
جادت بها القريحة	فى معرض النصيحة
أنا الشفيق الناصح	أنا المجتهد المازح
أسلك بالجماعة	فى طرق الخلاعة
أجدد لأكياس	عهد أبى نواس
أن تبغى الكرامة	وتطلب السلامة
أسلك مع الناس الأدب	ترى من الدهر العجب
ألن لهم خطابا	واعتمد الآدابا
تنل بها الطلابا	وتسحر الألبابا
وألبس حلا الخلاعة	واخلع رد الرقاعة
ولا تطاول بنشب	ولا تفاخر بنسب
المرء ابن اليوم	والعقل زين القوم
ما أروض السياسة	لجامع الرئاسة

إن شئت تلقا محسنا	فـلا تقل قط أنا
العز في الأمانة	والكيس في الفطنة
لا تغضب الجليسا	لا توحش الأنيسا
لا تسخط الرئيسا	لا تصحب الخسisa
لا تكثر العتبا	تنفر الأصحابا
فكثرة المعاتبة	تدعو إلى المجانبة
وإحلت مجلسا	بين سراة رؤسا
أقصد رضا الجماعة	وكن غلام الطاعة
ودارهم باللفف	واحذر وبال الخسف
لا تلفين كساذا	لا تهمل الملاعبا
قرب الندامى يلجى	للتسرد والشطرنج
واختصر السؤال	وقلل المقالا
ولا تكن مسعربدا	ولا بغضنا نكدا
ولا تكن مقداما	تسطو على النداما
لا تمسك الأقداحا	تنغص الأفراحا
لا تقطع الطوافة	لا تحبس السلافة
لا تحمل الطعاما	والنقل والمداما
فذاك في الوليمة	شناعة عظيمة

لا يرتضيها آدمى	غير وضع عادم
وقل من الكلام	مـا لاق بالمدام
كرائق الأشعار	وطيب الأخـبار
واترك كلام السفلة	والنكتة المبتذلة
تقابل الأكياس	إذا أريق الكاس
باده بالمنديل	فى غاية التعجيل
فشملة الكرام	سفنجة المدام
وإن رقت عندهم	فلا تشاكل عبدهم
فإن سلمت مسرة	فلا تعد يا عمرة
لا تأمن الثانية	فإن تلك القاضية
والدب فاحذره حذر	فإنه إحدى الكبر
فيالهافضيحة	وشنعة قبيحة
فاعلها لا يكرم	وإن رأى لا يرحم
كم سكن الترابا	ذوى غيرة دبابا
وكم فتى من دبه	أصبح منقضى التقبه
جازوه من جنس العمل	وصار فى الناس مثل
ليس من أسى	كمثل بعض الناس
إياك والتطفـيلا	وشؤمه الويـيلا

تَبَّأَ لَهَا مِنْ مَحَنَةٍ	وَمِثْلُهُ وَهَجَنَهُ
وَإِنْ دَعَاكَ الْأَخْوَةَ	إِلَى ارْتِشَافِ الْقَهْوَةِ
فَلَا تَصْقَعْ ذَقْنَكَ	وَلَا تَزْرِهِمْ بِأَبْنِكَ
وَلَا بِجَارِ الدَّارِ	وَلَا يَشْخِصْ طَارِي
وَلَا يَخْلُ تَأْلُفَهُ	وَلَا صَدِيقَ تَعْرِفَهُ
وَلَا تَقْلُ لِمَنْ يَحِبُّ	ضَيْفَ الْكِرَامِ يَصْطَحِبُّ
فَهَذِهِ أُمُثَالُ	غَالِبِهَا مُحَالُ
وَإِنْ حَلَلْتَ مَشْرِبَهُ	مَعَ سَوْقَةٍ لَا كُتِبَ لَهُ
فَلَا قَلِيلُ مِنَ الْمَدَامِ	فِي مَجْلِسِ الْعَوَامِ
فَعَصْبَةُ الْعَوَامِ	ضَرْبُ مِنَ الْأَنْعَامِ
وَلَا تَكُنْ مَلْحَاحًا	وَاجْتَنِبِ الْمَزَاحَا
فَكثْرَةُ الْمَجْنُونِ	نَوْعُ مِنَ الْجَنُونِ
وَالْأَمْرُ فِيهِ مُحْتَمَلُ	وَكُلُّ مَنْ شَاءَ فَعَلُ
وَأَخِرُ الْأَمْرِ رِضَا	وَكُلُّ مَفْعُولٍ مَضَى
وَإِنْ صَحَبْتَ تَرْكِي	فَاصْبِرْ لِأَكْلِ الصِّكِ
هَذَا إِذَا تَلَطَّفَا	وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ جَفَا
وَإِنْ يَكُنْ ذَا عَرِيدَةٍ	أَوْ نَزْغَةٍ مِنْكَدِهِ
يَقْصُومُ لِلْجُلُوسِ	بِالسَّيْفِ وَالدَّبُوسِ
أَبْشُرْ بِقَتْلِ الْقَوْمِ	وَشَوْمُ ذَاكَ الْيَوْمِ

فانهض إلى المبادرة	أن رام منك المسخرة
والأ قتلت يا خصا	واعمل له معرضا
وإن خلصت لا تعد	وسسه واتمخر وقد
ولا تفرر لعدم	فلا تخالف تندم
والحرر لا يداجي	فالشؤم في اللجاج
للأنفس الزكية	وهذه الوصية
وإخوتى وجنسى	أختارها لنفسى
يغب عن التوفيق	من يعد عن طريقى
أما سمعت باسمى	أما عرفت رسمى
وإن تشا فسلنى	سل الدنامنا عنى
أنا الحريف الطيب	أنا الفتى المجرب
أنا أخو الكرام	أنا أبو المدام
للهو مغناطيس	كأننى إبليس
فى طاعة الخلاف	أمشى على أعطافى
واستجل كاسك الملا	فبادر التفزلا
إن تركت عادت غصص	فإنما الدنيا فرص
تصحبها التحية	فهاكها وصية
إليك والسلام	تحملها الكرام

الباب السادس

فيمن يختار من الندماء والبلغاء والفصحاء وأرباب المروءات وذوى العقول والهيئات، فذلك مما يورث حسن الشيم ويبعث على سلوك الأدب وفى هذا المعنى يقول الشيخ صفى الدين الحلى:

صاحب إذا ما صحبت ذا أدب مهذب زان خلقه الخلق
ولا تصاحب من فى طبائعه شر فإن الطبع تسترق

وقال غيره:

كل امرء فى حالة حرب لا يا من العدوى به الأقرب
طبع الفتى يسرق من طبع من يصحبه فانظر لمن تصحب

وما أحسن قول بعضهم:

من عاشر الأشراف عاش مشرفا ومعاشر الأندال غير مشرف
أما ترى الجلد الحقيق مقبلا بالثغر لما صار جلد المصحف

ولقد تذكرت هنا حكاية لطيفة ينبغى أن لا يخلو هذا الكتاب عنها، وهى أن الحجاج أمر صاحب حرسه أن يطوف بالليل فمن رآه بعد العشاء ضرب عنقه فطاف ليلة فوجد رجلين يتمايلان وعليهما أثر الشراب وأحاط بهما الغلمان فقال لهما صاحب الحرس من أتما حتى خالفتما قول الأمير وخرجتما فى مثل هذا الوقت فقال أحدهما:

أنا ابن من دانت الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها
تأيه بالرغم وهى صاغرة يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عنه وقال لعله من أقارب أمير المؤمنين ، ثم قال لآخر من أنت فقال :

أنا ابن الذى لا تنزل الأرض قدره . وإن نزلت يوما فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره . فمنهم قيام حولها وقعود
فأمسك عن قتل الآخر وقال لعله من أشرف العرب واحتفظ بهما فلما
أصبح رفع أمرهما إلى الحجاج فأحضرهما وكشف عن حالهما فإذا الأول ابن
حجام والآخر ابن فوال فتعجب الحجاج من فصاحتهما وقال لجلسائه علموا
أولادكم الأدب فوالله لولا فصاحتهما لضربت عنقهما ورأيت فى بعض
المجاميع هذه الحكاية منسوبة إلى بعض الحكام لا على التعيين وأن الحاكم لما
أعجبه كلامهما أنشد :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا . يغنيك مضمونه عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنا ذا . ليس الفتى من يقول كان أبى
فانظر أيها الأديب إلى هذه البلاغة فى مثل هذه الحالة سبحانه المانح ما
هى الامنح الالهية ومواهب اختصاصية ، وقد آن لى أن أطلق عنان القلم فى
حلبة هذا السباق وأورد من نوارد اللطف ما يشنف الأسماع ويلطف الأذواق .
يحكى أنه قدم لبعض الحكام رجل ومعه زجاجة فارغة فأمر بحده فقال
ولم ذلك . قال لأن معك آلة الخمر فكشف الرجل عن متاعه فقال وهذه آلة
الزنا فضحك منه وأطلقه ، ورفع إلى هشام بن عبد الملك شيخ سكران ومعه
زجاجة شراب وعود ، فقال هشام اكسروا الطنبور على رأسه وصبوا النبيذ
على ثيابه واضربوه الحد ، فبكى الشيخ فقبل له أتبكى قبل أن تضرب فقال
ليس بكاءى للضرب ولكن لحقاركم العود حتى سمية موه طنبورا وخمرة
كالمسك سميتوها نبذا فاستظرفه الوالى وعفى عنه .

ورى بعض الولاة رجلا ومعه زجاجة شراب حاملها فى عبه فاستدعاه فجاء بين يديه وقال له أخرج يدك فأخرج يده اليمنى ومسك الزجاجة باليسرى فقال أخرج يدك اليسرى فأدخل اليمنى ومسكها بها وأخرج اليسرى، فقال أخرجهما معا فمشى إلى الحائط وأصق الزجاجة بالجدار وأسندها بجنبه وأخرج يديه معا فقال له الوالى أخرج عن الحائط فقال تنكسر يا مخلوع فضحك وقال خذها وانصرف.

وحكى أنه أتى عبد الملك بن مروان بسكران فقال له ماذا شربت فقال:

معتقة كانت قريش تعافها فلما استحلوا قتل عثمان حلت

فقال مع من شربت فقال:

شربت مع الشعر بكاس روتينى وأخرى مع الجوزاء لما ساقلت

قال فبم غنيت فقال:

سقونى وقالوا لا تغنى ولو سقوا جبال حنين ما سقونى لغنت

فضحك منه وأطلقه ومنع مروان بن الحكم الخمر فى أيام خلافته وأمر أصحاب الشرطة أن يدوروا فمن وجدوه سكرا أحضروه بين يديه، فبينما هم ذات ليلة إذ وجدوا شابا لم ير أحسن منه سكران وهو يقول:

البدر يكمل كل شهر مرة وجمال وجهك كل يوم كامل

وحلولة فى برج قلب واحد ولك القلوب جميعهن منازل

فلما فرغ من شعره قالوا له أوليس قد بلغك نداء أمير المؤمنين بترك السكر قال إنى رجل غريب قدمت وما علمت بما ذكرتموه فحذروه وتركوه ومضوا فلما كانت الليلة الثانية وإذا بالشاب سكران أكثر من الليلة الأولى وهو يقول:

يقولون تب والكاس فى يد أغيد وصوت المثنائى والمثالث عالى
فقلت لهم لو كنت أضمرت توبة وعساينت هذا فى المنام بدالى

فأحاطوا به أيضاً وقالوا له أوليس تقدم معك بالأمس ما يغنى عن
الإعادة، قال إني تبت وأنا سكران، فملت إلى النسيان فإن عاقبتكم فهو العدل
وإن عفوتم فلکم الفضل فحذروه أن لا يعود ومضوا فلما كان فى الليلة الثالثة
فإذا به سكران أكثر مما قبلها وهو يقول:

صلوا غريباً نحيباً ذاب من أسف أضحت حشاه بنار الهجر تلتهب
يموت وجدا ولكن دون وصلكم تعطفوا فلکم يبكى وينتحب

فمسكوه وأحضروه لمروان بن الحكم فضربه الحد فلما فرغ من جلده
ثمانين قال أصلح الله أمير المؤمنين إني عبد وقد جلدتني جلد الأحرار
فأعطني حق جنايتك على، فقال أعطوه حق جنايتنا عليه، فقال أصلح الله
أمير المؤمنين إن رأى أن يعطني حق جنايته على شرب الخمر متى أريده فليفعل
فاستغفره وجعله من جلسائه.

وحكى أنه أتى برجل مدنى سكران إلى بعض الولاة فأمر بإقامة الحد
عليه وكان الرجل طويلاً والجلاد قصيراً فلم يتمكن من ضربه، فقال الجلاد
للمدنى تقاصر لينالك الضرب فقال له ويلك إلى أكل الفالوج تدعوني والله
وددت لو أنى أطول من عوج بن عنق وأنت أقصر من يأجوج ومأجوج.

وقيل إن بعض اللطفاء كان يكثر من شرب المزور والنيذ فاحضر إلى
الوئى فأمر أن تنسب عليه حجة أن لا يعود يشرب مسكراً فمضوا به إلى
القاضى فقال له يا ولدى نشهد -ليك أن لا شرب مسكراً، ولا تمرب راروق
غدير، ولا حارة السودان، ولا حارة الشاشاء، ولا كرم دينار، ولا بركة

اليقطين، ولا حدره عكا، ولا الجزيرة، ولا المريس، ولا الباطلية، ولا شيرا،
ولا منية السيرج، ولا حادة زويلة، ولا الجوانية، ولا حارة الروم، ولا
الجودرية، ولا سويقة صفية، ولا قنطرة الفجر. فقال ذلك الرجل للشهود
اكتبوا الحجة على مولانا القاضى فإنه أخبر منى بهذه المواضع فاستظرفوه
وخلوا سبيله.

ويحكى أن بعض الظرفاء كان يستعمل الشراب سرا وكان عليه الحجر
من والده فبلغ ذلك لوالده فما زال يتتبع أخباره إلى أن لقيه ومعه زجاجة
خمر، فقال ما هذا قال لبن قال ويحك اللبن أبيض وهذا أحمر قال صدقت
ولكن كان أبيض فلما رآك خجل واستحى فاحمر ولعن الله من لا يستحى
فخجل والده وتركه. قلت: ومن هنا أخذ يزيد بن معاوية فقال:

دعوت بماء فى إناء فجاءنى غلام به خمرا فأوثقته زجرا
فقال هو الماء القراح وإنما تجلى له خدى فأوهمك الخمرا
وما أطف قول بعضهم:

دعوت بماء فى إناء فعفته وقلت طلبت الماء أحضرت لى الراحا
فاعرض عنى باسماء وهو قائل هو الماء لكن لون خدى له لاحا

لطيفة: نديان أحدهما لطيف والآخر كثيف ولكل منهما حدة
فى صدره، والآخرى من وراء ظهره فانفرد اللطيف يوما عن صاحبه واشترى
له مداما وفاكهة دخل حماما واعتزل عن الناس فى الخلوة، فبينما هو يتناول
ما معه من الشراب ويغنى وإذا بالحائط قد انشق وخرج منه عفريت فى صورة
فيل، وقال يا أنسى فلما رآه الأحذب لم يخف ولم يفرع وكلمه كلاما لطيفاً
وبسط له الأتس وعزم عليه فقال الجنى والله أنت أحذب لطيف يا إنسى ما

حاجتك. قال والله إن هاتين الحديتين قد بلياني البلاء وأحرمانى من الاجتماع بالناس، فإن كنت تعرف شيئاً يزيلهما عنى يكون لك الثناء الحسن فمسكهما الجنى بيده فاقتلعهما وجعلهما على رأس الحائط التى فى الخلوة ومهد له صدره وظهره بيديه فاستوى قائماً على قدميه وخرج فرحاً مسروراً فرآه رفيقه الأحذب فقال يا صاحبي ما شأنك ومن الذى جعلك مقوما بعدما كنت أحذب فذكر له القصة فمضى الأحذب الكثيف إلى السوق وكان معه منديل فباعه بثلاثة دراهم واشترى بها مداماً ونقلها ودخل إلى الخلوة، فلم يستقر لحظة إلا والجنى قد سمع صوته فقال والله إن صاحبنا اللطيف جاء إلينا فشق الحائط وخرج إليه فلما رآه الأحذب على هيئة الفيل هاله ففرغ فقال العفريت والله أنا خارج واحتال عليه ولاطفه حتى سكت فمد زلومته وأخذ الحديتين اللتين كانتا على رأس الحائط فلسقهما للأحذب واحدة فى الجانب الأيمن والأخرى فى الجانب الأيسر، فخرج وله أربع حدبات وهو أعجوبة من العجائب، فرآه بعض الناس فقال له ما هذا، فقال خلقة الله تعالى وهاتان اللتان فى الجنين اشتريتهما من الحمام الفلانى بثلاثة دراهم.

ويحكى عن بعض من أدركناه من اللطفاء أنه اجتمع ذات ليلة مع جماعة من أعيان الناس بالديار المصرية لا ينبغى التصريح بذكرهم فى مجلس أنس إلى أن أخذهم السكر ومالت رؤوسهم إلى الإعفاء وبقيت من الشراب بقية فوضعوها فى زجاجة وجعلوها فى خزانة وقالوا هذا نجعلها للاصطباح، وناموا والشيخ المذكور لم يأخذه نوم فقال فى نفسه وما تغنى هذه الزجاجة وهى لا تكفى الجماعة والأولى أن أحيى بها هذه الليلة فقام إليها وشرب جميع ما فيها إلى أن أصبح فقال رأى أنى انصرف إلى الحمام قبل أن ينتبهوا فذهب إلى الحمام وقضى أربه منه، ثم خرج إلى الجامع فصلى الصبح وجلس فجاء رجل وجلس بين يديه وجاء آخر فجلس بجانب صاحبه وهكذا

إلى أن بقي حوله جماعة فسأله بعضهم سؤالاً فأجابهم ثم سأله آخر فأجاب وانطلق لسانه وكان إذا تكلم لم يسكت لكثرة علومه وشدة بلاغته فازدحم الناس عليه، ولم يزل يستطرد من شيء إلى شيء إلى أن عمل لهم مجلساً في غاية ما يكون من الحسن والبلاغة، وأما الجماعة فإنهم انتبهوا وقاموا للاصطباح فلم يجدوا في الزجاجة شيئاً فعلموا أن ذلك من صاحبهم وفتشوا عليه فلم يجدوه فمضوا إلى الحمام وسألوا عنه فقيل لهم إنه كان هنا وخرج فاستعملوا ماء ومضوا إلى الجامع، وإذا بحلقة عظيمة وخلق مزدحمون فجاءوا من وراء الناس ونظروا فإذا هم به وهو في غاية ما يكون من المواعظ وإلقاء الدقائق فوقفوا منتظرين إليه فرآهم وعلم أنهم اتهموه بما كان في الزجاجة فزاد في المواعظ والأمثال وشرع بحسن التلخيص إلى جملة من كرامات الأولياء وكلام القوم إلى أن قال وما أحسن ما قاله سيدى عبد القادر الكيلانى قدس الله روحه حيث قال :

كان للقوم في الزجاجة باق أنا وحدى شربت ذاك الباقي

ففهم الجماعة مقصوده من غير أن يفهم أحد وقالوا والله لقد علمنا أنه ما شربها غيره وله نوادر وحكايات وظرف لا بأس بذكر بعضها، منها: أنه كان في بعض الأيام ومعه جماعة من الرؤساء فمروا من بعض الخلجان في شختور والشيخ المذكور يترنم بأبيات لطيفة، وإذا بشيخ نظر إليه من طاقة وقال إيش يقول هذا الشيخ النحس فأجابه برياسة ولطافة وقال تشتم الناس من الطاقة .

وألطف من ذلك ما حكى أنه كان بمكان وإذا بجماعة من عشائره راكبين في شختور فمروا من تحت لبيت فأروه في الطاقة فقالوا له يا سيدنا الشيخ قد وليناك قاضى المعرصين فقال قبلت ذلك، من له منكم دعوى على رفيقه فليقدم يدع عليه وله حكايات ظريفة ونوادر لطيفة ليس هذا موضع ذكرها .

ومن الحكايات اللطيفة ما حدث به إسحق بن إبراهيم الموصلى ، قال كنت عن المأمون يوماً فشربنا وطربنا فلما أُمسينا قال المأمون يا إسحق إن هذا اليوم قد طاب لى وقد عزمت غدا على الاصطباح وإنى أريد الدخول على الحريم فلا تبرح من مكانك حتى أوافيك ودخل وبقيت وحدى فاستوحشت وتذكرت صبية كانت لى وكنت عزمت على الدخول بها تلك الليلة فزاد غرامى واشتقت إليها وخرجت ولم أصبر عنها فلقينى الحجاب والخدم فقلت إن أمير المؤمنين قد دخل إلى الحجرة فما وسعنى الجلوس بعده وسأتية سحرا وذهبت فلما كان فى بعض الطريق أخذنى البول فعمدت إلى درب بإزاء الطريق فجلست وبلت ، ثم كانت منى التفاتة وإذا أنا بزنبيل معلق بشرائط حرير فجئت إليه وقلبتة فإذا هو مفروش بالديباج الخسروانى فحرت ولم أدر ما معناه ثم حملنى السكر إلى أن دخلت فيه .

فلما أحس بثقلى رفعت ولم أشعر إلا وأنا فى الهواء حتى صعد بى إلى أعلى شرافات قصر وإذا بوصائف وخدم وشموع فلما رأونى رحبوا بى وقالوا أهلا بالضيف فخرجت من الزنبيل وتقدموا بين يدى فنزلت إلى قصر من قصور الملك وفيه من الآلات ما لا يوجد إلا فى دور الخلفاء وأدخلت إلى مجلس فى غاية الحسن فيه من فاخر الفراش ما ليس فى دار الخلافة وفى صدره مرتبتان من مراتب الخلفاء فأجلست على واحدة على أيدى الخدم ، وبينهن جارية كأنها الشمس عليها من الحلى ما لا يكون لا على نساء الخلفاء وحولها وصايف حسان يرفعن أذيالها ولها وجه ما ظننت أنه من الآدميين فلما رأيت ذلك دهشت وقمت إجلالا لما رأيت فأقسمت على أن أجلس فجلست وجلست هى فى المرتبة الثانية وسبقتنى بالسؤال وقد رأتنى أصابنى الروح لدخولها ثم أشارت إلى الخدم فقدمن مائده من موائد المملوك ، وأحضرن من الطعام ما لم ير مثله إلا عند أمير المؤمنين فأكلنا وغسلنا أيدينا ثم تطيينا بأنواع

الطيب، ثم قدم من سفرة فيها أنواع الرياحين والفواكه الرطبة واليابسة فى أوانى الفضة والذهب وفيها من الشراب أطيبه وأرقه وأحسنه فى أوانى البلور، ثم أمرت بإحضار المغانى وآلات الملاهى، فاندفعن يضربن ويغنين فأخذنى الطرب وطار عقلى ثم خرجنا إلى الحديث وتفاوضنا أخبار الناس وتناشدنا الأشعار، فقالت: يا سيدى إنك لطريف وما رأيت أكثر ظرفاً منك، فقلت لها إنما اكتسبت ذلك من ابن عم لى هو أظرف منى وأعرف بالأخبار،

ومرت لى ليلة ما رأيت عمري كلها أطيّب منها، فلما كان من السحر صعدنى إلى السطح واهبط بى إلى الأرض ونهضت إلى دارى فلبثت قليلا ثم أتيت إلى المأمون فوجدته متغيرا على فقال لى يا إسحق أمرتك أن لا تخرج من هنا فما الذى أوجب مسيرك فقلت: يا أمير المؤمنين لما تركتني وبقيت وحدى تذكرت صبية عندى كنت عزمت على الدخول عليها فى هذه الليلة، فلم أتمالك أن نهضت إليها وحملنى السكر والشوق إلى أن كان منى ما كان، ثم إنه قبل عذرى وصفح عنى وجلسنا يوما نشرب إلى الليل، ثم دخل المأمون إلى الحريم وقال لا تبرح حتى نصطبج، فلما دخل لم يهن لى عيش ولا أخذنى قرار شوقا إلى ما كنت فيه بالأمس، فقلت لابد من الخروج فخرجت فمنعنى الخدم وقالوا قد أغلظ علينا أمير المؤمنين بسببك فأحسنتم لهم بالقول ولم أزل بهم حتى خرجت وقصدت الموضع، وإذا أنا بالزنبيل معلق على هيئته فدخلت فيه فلما أحسوا بى رفعونى، فلما رأونى قالوا ضيفنا البارحة قلت: نعم قالوا تمهل حتى نستأذن مولاتنا، فإن من عادتها أن لا يدخل عليها أحد تقدم له دخول فمضوا واستأذنوها فجاء الإذن بالدخول فجنّت إلى المجلس بعينه والمرتبتان بعينهما ثم جاءت فجلست وسألتنى عن حالى كيف كان بعدها وأظهرت من الأئس والفرح لحضورى ما أخجلنى ثم أتى بالطعام والشراب على الحال المتقدم وأخذنا فيهما إلى حد الانبساط

ودخلنا فى الحديث والمذاكرة أكثر ما كان بالأمس فلما أعجبها حديثى وملاطفتى قالت لى والله إنك لظريف حسن الحديث طيب المنادمة.

قال وكنت إذ ذاك أذكر فى أمر المأمون وظهر لى أن أحدثه بذلك لكن علمت أنه يكلفنى بالمشاهدة فقلت لها يا سيدتى كيف لو رأيت ابن عمى قالت والله ما بعدك غاية فقلت والله ما أنا إلا قطرة من بحر، ولو سمحت مولاتى أن آتى به لتيقنت صدق قولى فقالت والله ما جرت لى هذه العادة أبداً ولا دخل هذه الدار أحد وعاد إليها غيرك، وذلك لما رأيت من حسن أدبك ولطف شمايلك فقلت يا سيدتى لو رأيت ابن عمى لنقص عندك قدرى ولقل عندك كثيرى. قالت فإذا اتتنا به فى الليلة القابلة فقلت إن شاء الله تعالى.

وأخذنا فيما نحن فيه إلى وقت السحر، وخرجت من حيث دخلت ومضيت إلى منزلى فجلست فيه هنيهة ثم مضيت إلى المأمون فوجدته حرجا على فسلمت عليه فقال لا سلمك الله يا مستخف بأمرى وكلامى ووجدته قد عاقب الحاجب والبوايين. فقلت يا أمير المؤمنين لا تعجل على فإن لى حكاية ظريفة. قال قل فأعلمته الخبر ثم قلت وقد أخذت لك إذناً منها فسر بذلك غاية السرور ولم يكن له حديث فى ذلك النهار كله إلا إعادة الحديث والسؤال عن أخبارها، حتى أقبل الليل فقال هذا وقتنا فقمنا جميعاً بعد أن أشرطت عليه أن يضع نخوة الخلافة وأن يطرح عنى كل شىء ويجرى معى مجرى الأكفاء وأبناء الأعمام. فقال نعم، ثم وافينا الموضع وإذا بزنبيلين معلقين فدخلت أنا فى واحد وهو فى الآخرة فرفعنا وصرنا على السطح وأهبطنا إلى الدار ومضينا إلى المجلس بعينه وإذا فيه ثلاث مراتب فجلست أنا فى مرتبة وهو فى أخرى وبقيت الوسطى خالية، ثم أقبلت الجوارى وهى تتبختر بينهن على الهيئة المعتادة وقدم الطعام والشراب على الغادة والمأمون ينظر إلى ويتعجب من حسن ما يرى، ثم انبسطنا ودخلنا فى الحديث وتناشد

الأشعار وقد بهرها المأمون ببارع أدبه ومحاسن شيمه فقالت له يا سيدى إن ابن عمك هو فوق ما وصفت وأكثر مما ذكرت، ولقد قصرت فى وصفه ومرت لنا أحسن ليلة.

ثم إن المأمون لحسن ما رآه استرسل فى الشراب وزاد طربه فانندعت حارية من بعض الجوارى تغنى بشعر هو من صنعتى فلم تورده على وجهه والمأمون يعرفه متقناً ويعرف ما نقصته من صناعته فعند ذلك أخذته نخوة الرئاسة وغلبت عليه شهامة الخلافة فقال يا إسحق غن هذا الشعر فقامت قائماً عند ندائه إياى وقلت سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين، ثم أمرنى بالجلوس فجلست وأخذت العود وغنيت الشعر فقامت الجارية مسرعة دخلت بعض المخادع وحصل للخدم روع، ثم سألها عن حالها وبنت من هى ولمن هذه الدار، فقال له بعض الخدم هذا دار الحسن بن سهل وهذه بوران بنته فترلنا من الباب وانصرفنا إلى دار الخلافة، فلما أصبح خطبها المأمون من أبيها وتزوجها منه على حسب ما ذكره أهل التواريخ. انتهى.

ولم يزل المؤرخون وأهل الأدب يروون هذه الحكاية إلا صاحب جراب الدولة فإنه قال ومن الأحاديث الموضوعة والحكايات المصنوعة ما حدث به إسحق وساق هذه الحكاية على هذا النمط والله أعلم بصحة ذلك وإذ قد انتهى بنا الكلام إلى خطبة بوران فلنذكر نبذة متعلقة بزواجها فإن ذلك مما لا يستغنى عنه النديم.

حكى صاحب الاكتفاء فى تواريخ الخلفاء فى ترجمة المأمون قال ففى رمضان سنة عشر ومائتين بنى المأمون ببوران وكان المأمون قد سار من بغداد إلى فم الصلح إلى معسكر الحسن بن سهل فأنزله وزفت إليه بوران فلما دخل إليها المأمون كان عندها حمدونة بنت الرشيد وأم جعفر وزبيدة أم الأمين وجدتها أم أبيها الحسن وأخوها الفضل بن سهل فلما دخل نثرت عليه جندتها

ألف لؤلؤة من أنفوس ما يكون وقيل أنه لما دخل بها جلس يحادثها وقد فرش لها حصير منسوج بالذهب إذ نثرت عليها جدتها ألفا وثلاثمائة درة كبارا وصغارا في أطباق من ذهب فنظر المأمون إلى الدر وهو على الحصير فقال قاتل الله أبا نواس كأنه كان حاضرا هذا المجلس حيث يقول:

كان صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

وأمر المأمون بجمع ذلك فجمع ودفعه لبوران وقال سلى حوائجك فأمسكت فقالت لها جدتها سلى سيدك حوائجك فقد زمرك فسأله الرضا عن إبراهيم بن المهدي، فقال قد فعلت وسأله الإذن لأم جعفر زبيدة في الحج فأذن لها فألبستها أم جعفر البدلة الأموية اللؤلؤية وكان عليها من الجواهر واللاآلى ما لم ير مثله في الدنيا وأقام المأمون عند الحسن سبعة عشر يوماً وقيل عشرين يوماً يعدله كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه وخلع ابن سهل على جميع القواد على قدر مراتبهم وحملهم ووصلهم فكان مبلغ ما أنفقه والدها في هذا المهم خمسين ألف ألف درهم وقيل إن الحسن بن سهل كتب أسماء ضياع وأملاك له في رقاع ونثرها على القواد وقت عقد النكاح، فمن وقعت في يده رقعة فيها اسم ضيعة سلمها إليه وقيل إن جميع ما أوقد من الحطب في أيام هذا المهم إنما كان من العود القاقلى .

ومن ألطف ما يحكى أن المأمون لما خلا بها أخذها ما يأخذ النساء من الحيض فأشدته:

فارس ماض بحربته طاعن بالرمح فى الظلم
رام أن يدمى فريسته فاستجارت من دم بدم

ففهم مرادها وعاد من وقته إلى مبيتة وعاشت بوران بعد المأمون مدة ولعلها لم تتزوج بعده والله أعلم .

الباب السابع

فى الإحسان إلى الندماء وتتابع صلاتهم وحسن جوائزهم وهباتهم

اعلم أن الإحسان إلى الندماء مما يحث على بلوغ الأرب وتعاطى
كؤوس الأدب واتبعات الخواطر على اجتماع الأحياب وظهور الأئس بمجالس
الشراب وللمتقدمين من الخلفاء والوزراء فى ذلك ما يستبعد وقوعه من أولئك
وكانوا يعدون من القبيح انصراف النديم من غير إنعام فربما صغر فى عين أهله
ومن حوله من حاشيته والخدام.

كما حكى عن جمال الدين بن شيت كاتب سر الملك المعظم عيسى أنه
كان بينه وبين السلطان منادمة ومداعبة فاتفق أنه حضر عنده فى بعض الليالى
فلما فارقه ورجع إلى منزله قالت له زوجته أين إنعام السلطان قال ما أنعم
على الليلة بشيء قالت أنا أعوض عنه وقامت إليه هى وجواربها فى الحال
وناولته بالأخفاف الثقال إلى أن لانت أعطافه ودارت فى حانة الصفع سلافه
فكتب إلى الملك المعظم رقعة يذكر فيها شأنها وإحسانها إليه منها:

وتخالفت بيض الأكف كأنها الـ تصفيق عند مجالس الأعراس

وتتابعت سود الخفاف كأنها وقع المطارق فى يدى نحاس

فطرب السلطان من هذه الأبيات وبديعها وأمر بتلحينها وترجيعها ثم
رمى بها إلى فخر القضاة بن بصاقة وقال أجب عنها فكتب الجواب نثراً وفى
آخره:

فاصبر على أخلاقهن ولا تكن متخلقا إلا بخلق الناس

واعلم إذا اختلفت عليك فإنه ما فى وقوفك ساعة مر باس

ونادم أبو نواس أمير المؤمنين ليلة فأنعم عليه بجارية وأمر بحملها معه وقال لها سرا إذا طلب منه كذا وكذا، فانزلى فى قفاه وكلما فعل فافعلى فلما وصل إلى منزله وأراد أن يقربها نزلت فى ساحله فأمسك عنها ثم أراد منها فتزلت وهلم جرا فما أصبح الصباح إلا وقفاه فى غاية ما يكون من الألم، فجاء إلى الخليفة وهو لا يقدر أن يلتفت يمينا ولا شمالا فقال كيف كان حال ليلتك يا أبا نواس قال كانت ليلة طيبة إلا أن مولانا أمير المؤمنين عودها عادة قبيحة فضحك منه وصله بمال وله فى منادياته أمور عجيبة وأحوال غريبة لا بأس بذكر طرف منها مع الإيجاز والاختصار.

منها أنه حضر عند أمير المؤمنين ليلة أنس وكان أبو طوق حاضرا وأبو نواس مشغوف بحسنه وجماله فلما فرغ المجلس وأخذ كل واحد مضجعا للنوم خاف أمير المؤمنين على أبى طوق من أبى نواس وقال له نم فوق السرير وقال لأبى نواس أنا وأنت ننام أسفل السرير قال سمعا وطاعة وهو بذلك غير راض وتغافل الخليفة عن أبى نواس وأظهر النوم ثم انتبه قائما فوجد أبا نواس فوق السرير بجانب أبى طوق وهو يضمه ويعانقه فقال ما هذه الحالة يا أبا نواس فأنشد:

قد هزنى الشوق من أجل أبى طوق
تدحرجت ولم أدر من تحت إلى فوق

فقال له قاتلك الله الناس يتدحرجون من فوق إلى أسفل أم من أسفل إلى فوق. ومنها أنه بات عنده أيضاً ذات ليلة ومحبوبة أمير المؤمنين حاضرة عنده فلما أرادوا النوم استأذن أبو نواس فى الانصراف فلم يؤذن له ونام أمير المؤمنين ومحظيته فوق السرير وقال لأبى نواس ادخل تحت رجلى السرير فقال

لا أستطيع قال لا بد من ذلك، ففعل وانحصر حصراً عظيماً وقال فى نفسه كيف يأخذنى نوم على هذه الحالة، وربما كان بين أمير المؤمنين ومحبوبته ما كان ويدرى أنى غير نائم، فلا يحصل لى بسبب ذلك خير، وكان الأمر كذلك فإنها راودت أمير المؤمنين صبيحة الغد الحمام ينقص مقامى بين بقية الجوارى والمحاضى، فقال إن كان ولا بد من ذلك فكونى أنت من فوقى فإنى قد غلب على السكر ولا أستطيع الحركة ففعلت هذا وأبو نواس لم تغف عينه ولم يهجع وهو يظهر النوم خوفاً من أمير المؤمنين فلما كان من أمرهما ما كان ونزلت من فوقه أراد الخليفة أن يعلم على أبو نواس نائم أم مستيقظ، فقال يا أبا نواس، قال لبيك يا أمير المؤمنين قال ما الوقت وهل الأذان قريب أم بعيد، قال سل يا أمير المؤمنين الذى كان فوق المنارة ونزل فضحك أمير المؤمنين وقال أنا والله قد علمت إنك لم يكن لنا بك حاجة ونرجع إلى ما كنا فيه.

حكى عن بعض اللطفاء أنه امتدح بعض الرؤساء فرسم له ببرذعة وحزام فأخذهما على كتفه وخرج فرآه بعض أصحابه فقال له ما هذا فقال امتدحت مولانا الأمير بأحسن أشعارى فخلع على من أفخر ملابسه.

ويحكى أن بعض الأعراب امتدح بعض الرؤساء بقصيدة بديعة فلما قرأها عليه استنكرها عليه بعض الحاضرين ونسبه إلى سرقتها فأراد الممدوح أن يعرف حقيقة الحال فرسم له بمد من الشعر وقال فى نفسه إن كان النظم له فلا بد أن يقول فى شرح حاله شيئاً فأخذ المد الشعر فى ردائه وخرج فقال الممدوح للبوابين سرا لا تمكنوه من الخروج فوقف الأعرابى فى الدهليز حائراً فبعث إليه الممدوح بعض حاشيته فقال له ما شأنك يا أعرابى فقال إنى امتدحت الخليفة بقصيدة قال فما أجارك قال هذا المد من الشعر فقال هل قلت فى ذلك شيئاً قال نعم قال ما هو قال قلت:

يقولون لى أرخصت شعرك فى الورى فقلت لهم من عدم أهل المكارم
أجزت على شعرى الشعير وأنه كثير إذا خلصته من بهائم
فلما بلغ المدوح هذان البيتان أعجب بهما وعلم أن القصيدة من نظمه
فرسم له بجائزة سنية، وظريف ما اتفق لأبى الرعمق قال كان لى إخوان
أربعة وكنت أنادمهم فى أيام الأستاذ كافور فأتى إلى رسولهم فى يوم بارد
ولست لى كسوة تحصننى من البرد فقال الرسول لإخوانك يقرأون عليم السلام
ويقولون لك اصطبحنا اليوم وذبحنا شاة سمينة فاشتته ما نطبخه لك واثنا
عاجلا فكتب إليهم يقول:

إخواننا قصدوا الصبح بسحرة فأتى رسولهم إلى خصوصا
قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا
فذهب الرسول إليهم بالرقعة فما شعرت حتى عاد ومعه أربع خلع
وأربع صرر فى كل صرة عشرة دنانير فلبست إحداها وصرت ربهم . وقال
محمد بن يزيد المبرد خرج أبو تمام إلى خالد بن يزيد إلى أرمينية فامتدحه فأمر
له بعشرة آلاف درهم فقبضها وسأله الإذن فى رحيله فأعطاه نفقة لسفره
وودعه ومضت أيام فركب خالد متصيدا فرأى أبا تمام تحت شجرة وبين يديه
ركوة فيها نبيذ وغلام حسن الوجه بيده طنبور وهو يغنيه . قال حبيب قال نعم
خادمك وعبدك قال ما فعل المال فأنشد:

علمنى جودك السماح فما أبقيت شيئا لدى من صلتك

ودخل ابن الخياط الملكى على المهدي وامتدحه فأمر له بخمسين ألف
درهم فسأله أن يأذن له فى تقبيل يده فأذن له فقبلها وخرج فما انتهى إلى
الباب حتى فرق المال بأسره فعوتب على ذلك فاعتذر وأنشد يقول:

لمست بكفى كفه أبتغى الغنا ولم أدر أن الجود من كفه بعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ما عندى
فغنى بهما المهدي فأمر له بخمسين ألف دينار .

واستدعى بعض الخلفاء شعراء مصر فصادفهم شاعر فقير كان بيده جرة
فارغة ذاهباً بها إلى البحر ليملاها ماء فتبعهم إلى أن دخلوا دار الخلافة فبالغ
الخليفة فى إكرامهم والإنعام عليهم ورأى ذلك الرجل والجرة على كتفه ونظر
إلى ثيابه الرثة وقال من أنت وما حاجتك فأنشد :

ولما رأيت القوم شدوا رحالهم إلى بحرك الطامى أتيت بجرتى

فقال املاؤا له جرتة ذهباً وفضة فحسده بعض الحاضرين وقال هذا فقير
مجنون لا يعرف قيمة هذا المال وربما أتلفه وضيعه فقال الخليفة هو ماله يفعل
به ما يشاء فملئت له وخرج إلى الباب ففرق الجميع وبلغ الخليفة ذلك
فاستدعاه فعاتبه على ذلك فقال :

تجود علينا الخيرون بمالهم ونحن بمال الخيرين نجود

فأعجبه ذلك وأمر أن تملأ له عشر مرات وقال الحسنة بعشر أمثالها .

وعرض رجل من بنى أمية للرشيد فناوله ورقة وإذا فيها مكتوب :

يا أمين الله إنى قــــــــائل	قول ذى صدق ولب وحسب
لكم الفضل علينا ولنا	بكم الفضل على كل العرب
عبد شمس كان يتلوها شما	وهما بعد لأم ولأب
فصل الأرحام منها إنما	عبد شمس صنو عبد المطلب

فأعجب الرشيد ذلك وأمر له بأربعة آلاف دينار لكل بيت ألف دينار
وقال لو زدت لزدناك.

وامتدح المهلبى المستعين بالله بقصيدة فأمر له بمائتى ألف درهم.

وجلس المأمون فى رواق له على الدجلة فى ليلة مقمرة وهو يتأمل ضوء
القمر والنجوم فى الماء إذ طلع إبراهيم بن المهدي فسلم عليه وقبل يده فدعا
برطل وقال غن يا عم صوتا لأشرب عليه فغنى:

قد سمعت الديك صاحاً روأيت النجم لاحاً

فساسقنا واقطع بنا الـ دهر اغتباقنا واصطباحتنا

فشرب وطرب وقال يا ناثرا حمل إلى عمى ثلاثين ألف دينار، وغنى
إسحق الموصلى الوائق بالله قوله:

ظعنت سعاد غداة البين فى الوادى واخلفتك فما توفى ببيعاد

ما أنس لا أنس إذ قامت تودعنا والحزن منها وإن لم تبده بادية

فأمر له بمائة ألف درهم.

واصطبغ الوليد بن عبد الملك يوما فأحضر ابن شريح المغنى، وقال له
يا أبا يحيى غن صوتا فى أرق أبيات قالتها العرب فغنى يقول:

أفاطم مهلاً بعد هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت هجرى فاجملنى

وما ذرفت عيناك إلا لقتلتى بسهميك فى أعشار قلب مقبل

أغرك منى أن حبك قاتلى وإنك مهما تأمرى القلب يفعل

فقال والله لقد أصبت ما فى نفسى وأمر له بمال جزيل وخلع سنينة، ثم

قال إن أمير المؤمنين عبد الملك سألنا يوما فقال إنما أرق أبيات قالتها العرب
فقلت أنا هذه فقال أخى سليمان بل قول بشر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل
أريد ولا كفران لله إنما أعلق إن علفت كل مخيل
فقال أخى يزيد بل قول ثوبة:

أليس يضر العين أن تكثر البكا ويمنع منها نومها وسرورها

فقال أخى سلمة بل قول جرير:

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
عضين من عبراتهم وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا
فحكم لى أمير المؤمنين من بينهم وغناه ابن شريح الأبيات كلها فأضعف
جائزته وغنى حكم الوادى عند الهادى فقال:

خليلى لا والله لا أملك البكا إذا علم من أرض ليلى بداليا
خليلى لا والله لا أملك الذى قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا
فوثب الهادى عن فراشه طربا وشرب عشرة أرطال وهو قائم على قدميه
وأمر له بثلاث بدر وبينما يزيد بن عبد الملك على سطح وجارته حباة تغنيه
بشعر الأخوص تقول:

إذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحسن ميعاد السلو المقابر
سيبقى لها فى مضمرة القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

فطرب يزيد وقال لمن الشعر قالت لا أدري قال ابعثوا إلى الزهري
وككان قد ذهب من الليل شطره فأتى به فلما صعد إليه قال لا بأس عليك لم
ندعك إلا لخير اجلس فجلس وسأله عن قائل الشعر، فقال الأخوص وهو
محبوس يا أمير المؤمنين وقد طال حبسه فأمر بتخلية سبيله وأن يدفع إليه
أربعمائة دينار ثم قدم عليه فأجازه وأحسن إليه.

وأحسن من هذا ما روى عن حماد الرواية قال كنت محبا للوليد بن
عبد الملك فلما تولى أخوه يزيد الخلافة هربت إلى الكوفة فبينما أنا في المسجد
الأعظم إذ أتاني رسول محمد بن يوسف الثقفي وقال أجب الأمير فدخلت
عليه فقال ورد كتاب أمير المؤمنين بحملك إليه وبالباب نجبيان فاركب أحدهما
ودفع إلى كيساً فيه ألف دينار وقال هذه نفقة لمنزلك فدخلت دمشق في اليوم
الثامن ودخلت عليه وإذا هو جالس في دار مبلطة بالرخام الأحمر وفيها
سرادق خز أحمر في وسطه قبة حمراء من خر وفرشها وكلما فيها من خز
أحمر وعلى رأسه جارتان غليهما ثياب حمر بيد كل واحدة إبريق وفي يد
واحدة نبذ أحمر والأخرى نبذ أبيض فلما واجهته سلمت عليه بالخلافة فرد
على السلام وقال ادن يا حماد أتدري فيم بعثت إليك قلت لا قال في بيت
شعر ذهب عنى أوله فقلت من أى عروض وقافية قال لا أدري إلا أنه بيت
فيه إبريق فقلت في نفسي إن نفعتني الرواية يوماً فالآن وفكرت ساعة ثم قلت
نعم يا أمير المؤمنين لعله في قول تبع اليماني:

يقولون لى ألا تستفنيق	بكر العاذلون فى وضح الصبح
ه والقلب عندكم مـوثوق	ويلومون فيك يا بنت عبد الله
أعدو يلومنى أم صديق	لست أدري إذا كثر العذل فيها
قـينة فى يمينها إبريق	ثم نادوا إلى الصبوح فقاسمت

فصاح يزيد وقال هو والله الشعر بعينه وشرب وقال يا جارية اسقه فسقتني كأسًا أذهب ثلث عقلى ثم استعاد لشعر وشرب وقال اسقه فسقتني الكاس الثانى ولما شربت ذهب ثلث عقلى الثانى ثم استعاد منى الشعر وشرب وقال يا جارية اسقه فقلت قد ذهب ثلثا عقلى يا أمير المؤمنين فقال سل حاجتك قبل أن يذهب الثلث الآخر فقلت إحدى الجاريتين قال هما لك وما عليهما ومائة ألف درهم يحسن بهم سيرك، ثم ناولتنى الجارية كأسا فشربتها ونهضت وقد ذهب عقلى فعدت إلى دار الضيافة فانتبعت آخر الليل وإذا بشمع يوقد والجارتا ترصان الأمتعة والبغال تحمل مالهما من أثاث غيره وأصبحت قبضت المال وانصرفت وأنا أيسر أهل الكوفة.

وألطف من ذلك ما حكى أبو العباس محمد بن يزيد المبرد قال كان أبو عثمان المازنى قد جاءه يهودى وسأله أن يقرئه كتاب سيويه وبذل له مائة دينار فامتنع أبو عثمان من ذلك قال المبرد فقلت له سبحان الله ترد مائة دينار مع فاقستك وحاجتك إلى درهم واحد. فقال نعم يا أبا العباس اعلم أن كتاب سيويه يشتمل على ثلثمائة آية من كتاب الله ولا أرى إن أمكن منها كافرا فسكت. قال المبرد فما مضى إلا أيام قليلة حتى جلس الواثق يوما للشرب وحضر ندماؤه فغنت جارية فى المجلس هذا الشع وهو:

أظلم إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

فنصبت رجلا فلحنها بعض الندماء وقال الصواب الرفع لأنه خبران فقالت الجارية ما حفظته من معلمى إلا هكذا، ثم وقع النزاع بين الجماعة فمن قائل الصواب معه ومن قائل الصواب معها فقال الواثق من بالعراق من أهل العربية ممن يرجع إليه قالوا بالبصرة أبو عثمان المازنى وهو اليوم واحد عصره فى هذا العلم فقال الواثق بالله اكتبوا إلى والينا بالبصرة يسيره إلينا

معظمًا مبجلًا فما كان إلا أيام حتى وصل الكتاب إلى البصرة فأمر الموالي أبا عثمان بالتوجه وسيره على بغال البريد فلما دخل على الواصل رفع مجلسه وزاد في إكرامه وعرض عليه البيت فقال الصواب مع الجارية ولا يجوز في رجلا غير النصب لأن مصاب مصدر بمعنى الإصابة ورجلا منصوب به والمعنى أن إصابتكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم فظلم خبران ولا يتم الكلام إلا به ففهم الواصل كلام أبي عثمان وعلم أن الحق ما قاله وأعجب وانقطع الرجل الذي كان أنكر على الجارية ثم أمر الواصل لأبي عثمان المازني بألف دينار وأتحفه بتحف وهدايا كثيرة لأهله ووهبت له الجارية جملة أخرى من المال ثم سيره إلى بلده مكرما، فلما وصل جاءه المبرد يهنيه بالقدوم فقال له أبو عثمان كيف رأيت يا أبا العباس تركت لله مائة فعوضني ألفا فقال المبرد من ترك لله شيئا عوضه خيرا منه ورأيت هذه الحكاية في أدب النديم لكشاجم منسوبة للمتوكل لا للواصل وأن الراد على الجارية يعقوب بن السكيت والله أعلم.

وأبلغ من ذلك ما حكى أن جعفر البرمكي نادم الرشيد ليلة فقال با جعفر بلغني أنك اشتريت الجارية الفلانية رلى مدة أطلبها وبى شوق زائد إليها فبعنيها فقال ليس على فيها بيع، فقال فهنيها قال ولا أهبها. فقال الرشيد زيدة طالق منى ثلاثا إن لم تبعتها أو تهنيها ثم أفاقا من نشوتهما فعلمتا أنهما قد وقعا فى أمر عظيم وعجزا عن تدبير الحيلة، فقال الرشيد هذه واقعة ليس لها إلا أبو يوسف فاطلبوه وكان قد انتصف الليل فلما طلب قام فرعا وقال ما طلبت فى هذا الوقت إلا لأمر حدث فى دين الإسلام، ثم خرج مسرعا وركب بغلته وقال للغلام أصحب معك المخلاة واجعل فيها بعض شعير فإذا وصلنا إلى دار الخلافة فضع للبعلة الشعير تشتغل به إلى حين خروجى فإنها لم تستوف عليها فى هذه الليلة فقال سمعاً وطاعة فلما دخل إلى الخليفة قام

إليه وأجلسه معه على السرير وقال ما طلبناك فى هذا الوقت إلا لأمر مهم وهو كذا وكذا وقد عجزنا عن تدبير الحيلة، فقال يا أمير المؤمنين هذا من أسهل ما يكون يا جعفر بع لأمر المؤمنين نصف الجارية وهبه نصفها وتبرا فى ميمكما فسر أمير المؤمنين بذلك وفعلوا وقال القاضى أبى يوسف إنى أريد وطئها فى هذا الوقت ولا أطيق الصبر إلى مدة الاستبراء فقال أبو يوسف اتئونى بملوك من ممالك أمير المؤمنين لم يجر عليه العتق فأتوا بملوك فقال أبو يوسف يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أزوجهها منه ثم يطلقها قبل الدخول فيحل وطئها فى الحال من غير استبراء .

فأعجب الرشيد ذلك فقال أذنت لك فى ذلك فأوجب القاضى النكاح وقبله المملوك ثم قال له طلقها فقال هذه صارت زوجتى وأنا لا أطلقها فرددوا عليه القول فأبى وضاق صدر أمير المؤمنين رغبة بالمال فقال طلقها ولك مائة دينار قال لا أفعل قال مائتا دينار قال لا أفعل إلى أن عرض عليه ألف دينار وهو يمتنع فقال للقاضى الطلاق بيدك أم بيدى أمير المؤمنين فقال له القاضى بل بيدك قال والله لا ذكرته أبداً فاشتد غضب أمير المؤمنين فقال أبو يوسف لا تجزع يا أمير المؤمنين فإن الأمر هين ملك هذا المملوك لها قد ملكتها إياه فقال لها قولى قبلت فقالت قبلت . قال القاضى حكمت بالتفريق بينهما لآه قد دخل فى ملكها، فانفسخ الناح فقام الرشيد على قدميه وقال مثلك من يكون قاضيا فى زماننا، ثم استدعى بأطباق الذهب فأفرغت بين يديه وقال للقاضى هل معك شئء تحمله فيه فتذكر مخلاة البغلة فاستدعا بها فملئت ذهباً، فأخذها وانصرف فلما أصبح قال لنظرائه من يتعلم العلم فليتعلمه هكذا .

فانظر أيها المتأدب إلى هذه الواقعة فإنها اشتملت على محاسن منها دلال جعفر على الرشيد وحلم الرشيد وكرمه وزيادة علم القاضى فرحم الله

أرواحهم أجمعين لكن مسألة الاستبراء لم تخرج على مذهبنا وإنما خرجها أبو يوسف على قاعد مذهبه والله أعلم.

قال إسحق بن إبراهيم الموصلي: لما ولي الهادي الخلافة طلب أبي فاستتر منه للأيمان التي كان المهدي حلف بها فما زال حتى أتى به فجاء إليه فأمره بملازمته ووصله في يوم واحد بمائة وخمسين ألف درهم وأجرى له رزقا في كل شهر عشرة آلاف درهم سوى صلاته وغلال ضياعه وكان طعامه معدا في كل وقت متى دعا به وجده حاضرا وكان لمطبخه في كل يوم ثلاث شياه سوى الطير وكان مرتبه لطعامه وطيبه وفاكهته في كل شهر ثلاثين ألف درهم غير الكسوة ومات وليس في ملكه غير ثلاثة آلاف دينار وعليه دين أكثر منها ف قضى عنه وغنا إبراهيم عنده فقال:

هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى	وزرتك حتى قيل ليس له صبر
فيا حب ليلي قد بلغت بي المدا	وزدت على ما ليس يبلغه الهجر
فيا حبها زدني جوى كل ليلة	ويا سلوة الأيام موعداك الحشر
وإني لتعروني لذكراك هزة	كما انتفض العصفور بلله القطر

فأمر له الهادي بمائة ألف درهم وغضب الرشيد يوما عليه بسبب هفوة وقعت منه في حال سكره فشفع جعفر بن يحيى فيه فأمر بإحضاره فلما حضر عنده غنا قوله:

سیدی إن یکن تعاضم ذنبی	فاعف عني فأنت للعفو أهل
لا تؤاخذ بما یقول علی السک	ر فتی ماله لدى لصحو عقل

فصار يعاتبه ويوبخه فأنشد:

من لعبد أذله مولاه ماله شافع إليه سواه
يشتكى ما به لديه ويخشى وهو يرجوه مثل ما يخشاه
قال فاستعاده مرارا ووصله بمال ، ونظر الرشيد إليه يوما فقال يا إبراهيم
أرى الشيب يضحك بعارضيك فأنشد يقول :

تولى شبابي إلا قليلا وحل المشيب فصبرا جميلا
كفى حزنا بفراق الشباب وقد أصبح الشيب منه بديلا
ولما رأى الغانيات المشيب رددن عنى طرفا كحिला
سأندب عهدا مضى للصبأ وأبكى الشباب بكاء طويلا
قال فبكى الرشيد وقال والله لو قدرت على رد شبابك لفعلت فرحم الله
تلك الأرواح الطاهرة .

وقال معبد : المغنى كنت منقطعا إلى البرامكة فبينما أنا ذات يوم فى
منزلى وإذا بيبابى يدق فخرج غلامى وعاد ثم قال على الباب فتى جميل
يستأذن فأذنت له فدخل شاب عليه أثر الصقم فقال لى مدة أحاول لقائك ولى
حاجة إليك فقلت ما هى فأخرج ثلثمائة دينار ووضعها بين يدى وقال أريد أن
تقبلها منى وتصنع لى لحنا فى بيتين قلتها قال أنشدنيهما فقال :

بالله يا طرفى الجانى على كبدى لتطفين بدمعى لوعة الحزن
لألا أبوحن حتى تحجبوا سكنى فلا تراه ولو أدرجت فى كفنى
قال معبد فصنعت لهما لحنا شجيا يشبه النوح وغنيته فأغمى عليه حتى
ظننت أنه مات ، ثم أفاق فقال أعد ما قلت فناشدته بالله وقلت أخشى أن
تموت . قال ليت ذلك لو كان وما زال يخضع ويتضرع حتى رحمته وأعدته

فصعق صعقة أشد من الأولى فلم أشك فى موته وما زلت أنضح عليه من ماء الورد حتى أفاق ثم جلس فحمدت الله تعالى على السلامة ووضعت دنانيره بين يده وقلت خذ مالك وانصرف عني قال لا حاجة لى بها ولك مثلها إن أعدتهما، فشرهت نفسى فقلت أعيدهما ولكن بثلاثة شروط أولها أن تقيم عندي وتأكل من طعامى حتى تقوى نفسك، والثانى أن تشرب من الشراب ما يمسك قلبك، والثالث أن تحدثنى بحديثك .

فقال لك ذلك، ثم قال اعلم أنى رجل من زهل المدينة خرجت متنزهاً مع إختوى وقد سال المطرفى العقيق فرأيت فتاة مع فتيات كأنها غصن جلله النداء تنظر بعينين ما ارتد طرفهما إلا بنفس ملاحظهما فما زلنا حتى فرغ النهار وانصرفنا وقد أودت بقلبي جراحاً بطيئة الاندمال، فعدت أئسم خبرها فلم أجد أحداً فبجعلت أتبعتها فى الأسواق فلم أقع لها على خبر ومرضت أسا وحكيت قصتى لذى قرابة لى فقلت لا بأس عليك هذه أيام الربيع انفضت وستمطر السماء فتخرج أنت وأخرج أنا معك وافعل مرادك .

قال فاطمأنت نفسى لذلك إلى أن سال العقيق وخرج الناس ينظرون فخرجت مع إختوى وقرابتى وجلسنا فى مجلسنا بعينه فما لبثنا إلا والنسوة كفرسى رهان فقلت لذى قرابتى قولى لهذه الجارية يقول لك هذا الرجل لقد أحسن من قال :

رمتنى بسهم أقصد القلب وانثنت وقد غادرت جرحا به وندوبا

قال فمضت إليها وقالت لها ذلك فقالت قولى له وأحسن من قال أيضاً :

بنا مثل ما تشكو فصبوا لعلنا نرى فرجا يشف القلوب قريبا

قال فأمسكت عن الكلام خوفاً من الفضيحة وقمت منصرفا فقامت

لقيامى وتبعتهما التى أرسلتها إليها من قرابتى حتى عرفت منزلها ورجعت فأخبرتني بمكانها وسرت إليها حتى اجتمعنا واتصل ذلك حتى شاع وظهر وحجبها أبوها فلم أزل مجتهدا فى لقائها فلم أقدر فشكوت إلى أبى فجمع أهلنا ومضى إلى أبيها راغبا فى خطبتها فقال لو بدا له ذلك قبل أن يفضحها لفعلت ولكنه شهرها فما أحقق قول الناس قال معبد فأعدت عليه الصوت فطرب ولكن لم يحصل له كما حصل أولا ثم أعطاني ثلاثمائة درهم أخرى وعرفنى منزله ثم انصرف.

وكان طلبنى جعفر بن يحيى فحضرت على عادتى فغنيته شعر الفتى فطرب وشرب أقداحا وقال ويلك لمن هذا الصوت فحدثته حديث الفتى فأمرنى بالركوب إليه، وأأجعله على ثقة من بلوغ أربه فمضيت إليه وأحضرت له واستعاده الحديث فحدثه فقال هى لك فى ذمتى حتى أزوجه إياها، فطابت نفسه وأقام معنا. فلما أصبح ركب جعفر إلى الرشيد وحدثه بذلك فاسترفه وأمر أن تحضروا جميعاً، فحضرنا واستعادنا الرشيد الصوت وشرب عليه فطرب وأمر بكتاب إلى عامل الحجاز بإحضار أبى المرأة وأهلها مجملين مبجلين إلى حضرته، وبالإنفاق عليهم نفقة واسعة، فلم يمض إلا يسير حتى حضروا فأمر الرشيد بإحضار الرجل إليه، فحضر وأمره بتزويج ابنته من الفتى وأعطاه ألف دينار ونقلت إلى أهله ولم يزل الشاب من ندماء جعفر حتى حدث به ما حدث فعاد الفتى بأهله إلى المدينة فرحم الله أرواحهم أجمعين.

وكان الحسن بن وهب قد عشق جارية محمد بن حماد عشقا شديداً فأنفق عليها فى مدة قريبة ثلاثين ألف دينار، وكان يزورها فى بيت مولاهما فعوتب على ذلك وقيل له لو أعطيت مولاهما بعض ذلك لباعها منك. فقال هيهات عندى ثلاثون جارية أقلهن أبدع منها، ومع ذلك لو سألتني فيهن سائل

بساعة منها لبذلتهن له إذ الملك والإحاطة يورثان السّامة والملااة، وإنكم لا تدرون طعم لذة الممانعة وطيب المصادقة والمجالسة واشتغال الرقيب بانتهاز الفرصة.

وقال الرشيد للفضل بن يحيى بلغنى أنه قدم إسماعيل بن صالح وأنا أريد أن أراه قال يا سيدى أخوه عبد الملك فى حسبك وقد نهاه أن يمضى إلى أحد قال فإنى أتعلل حتى يأتينى عائدا فقال الفضل لإسماعيل ألا تعود أمير المؤمنين قال بلى فمضى به إليه وكان أخوه قد وجه إليه أنهم إنما يريدونك لتشرب معهم وتغنى لهم فإن فعلت فما أنت أخى فلما دخل على الرشيد رفعه وأكرمه، وقال إنى وجدت بك راحة واشتهيت الطعام فقدمت المائدة فأكلوا وصف الطيب أقداح الشرب.

فقال الرشيد والله ما شربنا حتى يشرب إسماعيل فقال له اتق الله يا سيدى فإن على يميننا أن لا أفعل شيئا من ذلك، فقال لا بد من الشرب فشرب ثلاثة أقداح وسقاه مثلها ثم مدت ستارة وخرج بعض الجوارى يضربن وبعض يغنين فطرب الرشيد وإسماعيل وتناول الرشيد عودا ووضعاه فى حجر إسماعيل، وكان فى يد الرشيد سبحة فيها عشرة قطع اشتراها بثلاثين ألف دينار فوضع السبحة فى عنق العود وقال له غن وكفر عن يمينك بثمان هذه السبحة، فاندفع إسماعيل يغنى ويقول:

لعمرك ما أهويت كفى بريبة ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قاذنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلنى رأى عليها ولا عقلى
وأعلم أنى لم تصبني مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى

فطرب الرشيد وقال الرمح يا غلام فعقد له لواء على مصر قال إسماعيل فوليتها ستين وأوسقتها عدلا، وانصرفت منها بخمسمائة ألف دينار.

وحدث إبراهيم الموصلى قال خرجت يوما وأنا مخمور لأستشق الهواء فوجدت رائحة طعام هناك استطيتها فأمرت الغلام أن يعلم الرائحة فى أى مكان هى فقال فى تلك الدار فوقفت بالدار وإذا بجارية قالت ما تريد قلت تطعمونا من طعامكم فمضت إلى مولاتها ثم عادت وقالت ادخل فدخلت وجلست ثم أتت بخوان وأرسلت مولاتها إلى تقول لو كان مولانا حاضرا لم يدع مباسطتك ولا الشرب معك فرجعت وإذا أنا برجل على حمار يريد الدار فأبصرنى حين خرجت من الدار فلما صار لى الباب أقبل على الجارية وسزلها عنى فأخبرته فقال والله ما فعل هذا إلا فتى، فرجع إلى مسرعا وأدركنى وأقسم على فى الرجوع معه ولم يفارقنى حتى رجعت معه فادخلنى الدار وصعد بى إلى مجلس ظريف وإذا بشراب وريحان ولم تزل الجارية تختلف بالوان الفواكه والطيب من مولاتها ولم أزل فى المنزل إلى آخر النهار ثم انصرفت إلى منزلى فأخبرت أن الرشيد لم يزل فى طلبى فبكرت إليه فلما دخلت قال لى أين كنت قلت كان لى يا أمير المؤمنين قصة عجيبة. قال وما هى فأعلمته ووصفت له القدرة وطبيها والرجل ومنزله، وما كنت فيه عنده فضحك وقال أما سأل عنك ولا عرف من أنت قلت لا بل تشاغلنا بغير ذلك. قال إنى أشته هذه القدرات والشرب فى هذا الموضع فخذلنا موعدا بحيث لا يدرى بنا أحد.

قال فانصرفت من عند أمير المؤمنين وبكرت إلى الرجل فأتى بمثل ما كنت فيه وسر بحضورى فلما أخذ الشراب من رأسى قلت يا مولاي لى صديق آتس بقربه وقد وصف له مروءتك وقد أحب أن يأتيك ويزورك ويأكل من هذه القدرة. قال السمع والطاعة متى تحب أن يكون ذلك قلت غدا فى أول الليل، فإن عليه دينا فلا يظهر نهارا. قال نعم، فانصرفت من عنده وأعلمت أمير المؤمنين فلما كان الليل ركبنا حمارين وأتينا إليه فأنزلنا وأكرمنا

وأثانا بالقدرة الموصوفة فأكل منها الرشيد واستطابها وقال ما أكلت مثلها، ثم
أثانا بشراب وريحان وأقبلت اللطائف من المرأة في كل ساعة.

فلما رأى الرشيد هيئته سألته عن حاله ومعاشه فقال كانت لأبى نعمة
فمات وخلف مالا كثيراً فأتلفته فلما بقي بعضه ترفقت به واقتصرت فيه فأنا
من الله فى نعمة فلما أخذ الشراب منا أثانا بقيتين فسمعنا منهما غناء حسناً
فقال الرشيد ناج الرجل سرا وعرفه مكانى فقلت يا فلان أتدرى من هو الذى
عندك. قال لا. قلت هذا أمير المؤمنين الرشيد فضحك الرجل وقال عجيب
أن أقع على شىء فيه خير يا طناز أى قرنان حتى استلقى على قفاه فضحك
الرشيد ونهض الرجل إلى امرأته وقال أما تعجبين من أضيافنا هؤلاء فإنهم قد
عربدوا علينا واستهزأوا بنا لما أكرمناهم زعم أحدهم أنه أمير المؤمنين ثم جاء
ودفع القدح إلى الرشيد وقال اشرب يا أمير المؤمنين يهزأ به، فضحك الرشيد
فقال إبراهيم للرجل والله إنه أمير المؤمنين حقاً، فقال دعنا منك الآن ومن
عربدتك إذ أنت لم تشرب إلا قدحين، صيرت هذا أمير المؤمنين فبعد ساعة
تدعى فيه النبوة فاشتد ضحك الرشيد منه فلما كان وقت السحر وأردنا
الانصراف قال الرشيد ناجه سرا وأخبره بصحة الخبر، فأخبره فعاد لقوله
الأول فقلت له دع عنك هذا ويكر إلى جارك واسأله عن الملك واسأله عن
إبراهيم الموصلى واعرف منزله، فإذا وصلت إلى الباب فقل للخدم أنا
صاحب القدرة ثم انصرفنا من عنده فلما أصبح الصباح قال له جيرانه يا فلان
ما هذه الحلبة التى كانت عندك الليلة، ومن هؤلاء الأخوان قال لا أدرى غير
أن حالى معهم كيت وكيت، وقص عليهم القصة وأعاد عليهم قوله أنه أمير
المؤمنين، وأعجب من هذا أنهم قالوا سل جارك عن الملك وعن إبراهيم
الموصلى.

قال بعضهم صف لى صفة الرجل فوصفها له فقال امض الساعة وافعل

ما أمرك فإنه أمير المؤمنين حقا قال فركب وسار إلى منزل إبراهيم الموصلى فاستأذن وقال أنا صاحب القدرة، فدخل على إبراهيم فركب معه من ساعته إلى الرشيد وأعلمه فأذن إله، وقال أعد مقالتك فقال العفو يا أمير المؤمنين فقال والله لا بد أن تقوم كما قلت فأعادها وضحك الرشيد وسأله عن حاله وأمر له بثلمائة ألف دينار وقال له صف لنا هذه القدرة فقال يا أمير المؤمنين شيء وصلت به إلى هذا الموصل أفأبذله فما تبقى فى مزية إذا أعلمتك به ولكنى أطبخها لأمير المؤمنين فى أى وقت أرادها قال صدقت إذا أردناها جهزنا من يأتينا بها وكان الرجل يعرف بصاحب القدرة.

وقال ولده إسحق غدوت يوما وأنا متضرجر من ملازمة الخليفة وداره فعزمت على أن أطوف فى الصحراء واتفرج وقلت لغلمانى إن جاء رسول الخليفة أو غيره فلا تعرفوه مكانى فطفت ما بدا لى ثم عدت وقد حمى النهار فوقفت فى فناء دار أستريح، فما لبثت أن جاء خادم يقود حمارا وعليه جارية راكبة وعليها فاخر الثياب، ورأيت عليها قواما حسنا وظرفا فائقا فتوهمت أنها جارية مغنية فدخلت الدار التى أنا واقف عليها ثم لبثت قليلا وإذا رجلان شابان جميلان فاستأذنا فأذن لهما فدخلا ودخلت معهما فظنا أن صاحب البيت دعانى وظن صاحب البيت إنى معهما وجلسنا فأتى بالطعام فأكلنا وبالشراب ودخلت الجارية وفى يدها عود فغنت وقمت قومة فسأل صاحب المنزل عنى فأخبراه أنهما لا يعرفانى فقالوا هذا طفيلى ولكنه ظريف فأجملوا عشرته فجئت فجلست وغنت الجارية أبياتا وهى:

ذكرتك إذ مرت بنا أم شادن أمام المطايا تستريح وتسبح

من المؤلفات الرمل إذا مال نحوه شعاع الضحى فى وجهها يتوضح

فأدته أداء حسنا، ثم غنت أصواتا من القديم والحديث وغنت أبياتا من

صنعتى وهى:

قل لمن صد عاتبا ونى عنك جانبنا
قد بلغت الذى أردت وإن كنت لاعبا

قال إسحق فاستعدته منها لأصححه عليها فأقبل على أحد الرجلين يعنفنى ويقول ما رأينا طفيليا أصقع وجهها منك لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت صوتا وهذا غاية المثل (طفيلى ويقترح) فأطرقت وجعل صاحبه يكفه وهو لا يلتفت ثم قاموا إلى الصلاة وتأخرت بعدهم قليلا فأخذت عود الجارية وشدت طبقته وأصلحته إصلاحا محكما وصليت وعدت إلى موضعى وعادوا وأخذ ذلك الرجل فى عربدته وأنا صامت، ثم أخذت الجارية العود وجسته فأنكرت حاله وقالت من حبس عودى، قالوا ما حبسه أحد منا. قالت بلى والله لقد حبسه حاذق متقدم وشد طبقته وأصلحه إصلاح متمكن من الصناعة، فقلت لها أنا فقالت بالله عليك خذه واضرب به فأخذته وضربت به ضربا عجيبا فيه نقرات محكمة محركة فما بقى منهم أحد إلا وثب وجلس بين يدى، فقال صاحب المنزل أقسم بالله أن لك فى هذه الصناعة لصيتا فبالله عليك إلا ما عرفتنا بنفسك، فقلت أنا إسحق الموصلى ووالله إنى لآتيه على الخليفة إذ طلبت وأنتم ترون صاحبكم يسمعى ما أكره لكونى نادمتكم وتأدبت معكم وحللت عندكم، ووالله لا نطقت بحرف ولا جلست حتى تخرجوا هذا الممقوت.

فقال له صاحبه من مثل هذا خفت عليك فأخذوا بيده وأخرجوه وعادوا فبدأت وغنيت الأصوات التى غنتها الجارية من صنعتى فقال لى الرجل هل لك فى خصلة قلت ما هى قال تقيم عندنا أسبوعاً والجارية والجهاز لك، قلت أفعل فأقمت عنده أسبوعاً لا يعرف أحد أين أنا والمأمون يطلبنى فى كل

موضع فلما اقنضت الأيام سلمنى الجارية والجهاز والخادم فجئت إلى منزلى وركبت إلى المأمون من وقتى، فلما رأتى قال يا إسحق ويحك أين كنت فأخبرته الخبر، قال على بالرجل الساعة فدلته عليه فأحضره وسأله المأمون عن القضية فأخبره بالقصة فقا أنت ذو مروءة وسيلك أن تعان عليها وأمر له بمائة ألف درهم وقال لا تعاشر ذلك النذل المعربد وأمر لى بخمسين ألف درهم.

وكان المأمون قبل أن يظفر بإبراهيم بن المهدي لا يشرب فاتفق أن إسحق الظاهري لقي على بن هشام كاتب المأمون فسلم كل منهما على الآخر فقال إسحق لعلى بن هشام بكلام خفى قد زارتنى اليوم فلانة وهى بغية أمير المؤمنين فبحياتى عليك إلا ما زرتنى وسرت إلى حتى تأنس بها فقد طال انفرادنا وكان بالقرب منهما طفيلى يسمع كلامهما فمضى الطفيلى من وقته ولبس ثياباً نظافاً واستعار فرساً ووافى على بن هشام وقال للحاجب عرفه أنى صاحب إسحق فدخل الحاجب وخرج مسرعاً قال ادخل فدخل وسلم فأحسن، وقال يا سيدى يقول لك أخوك أنت تعلم ما اتفقنا عليه فلم تأخرت عنه فقال قل له الساعة وحياتك نزلت من الركوب وغيرت صيابى وتهيئت كما ترى فخرج من عنده وأتى إسحق وقال للحاجب عرفه أنى رسول على ابن هشام، فدخل وخرج مسرعاً وقال ادخل فدخل وسلم بأحسن سلام وقال أخوك يقرئك السلام، ويقول لك الساعة نزلت من الركوب وغيرت ثيابى وتهيئت، فقال له قبل يده وقل له يا سيدى قتلنا جوعاً فبحياتك إلا ما أسرع فخرج من عنده وأتى عليا وقال له إن الأمير أیده الله أمرنى أن لا أربح حتى آتیه بك فركب ومعه الطفيلى حتى دخلا جميعاً فسلما وجسلا فجاء الطعام فأكلوا وكل منهما يظن أنه من أخصاء الآخر، وغسلوا أيديهم وتطيبوا وأخذوا فى شربهم وجلست الجارية وإذا هى أحسن ما خلق الله قدا

وزيا فدهش كل منهما وفرح بها، ثم أتى بعود فوضع فى حجرها فغنت أحسن غناء ودارت الأقداح والأرطال ولم يزالوا إلى العصر وأخذ الطفيلى البول فصبر له جهده حتى كاد يأتى على روحه فقام ودخل الحلاء.

فقال على لإسحق ما أخف روح هذا الرجل فمن أين وقع لك قال أوليس هو صاحبك قال لا وحياتك وقص كل منهما قصته فعلما أنه طفيلى فاغتاظ إسحق غيظاً عظيماً لم يملك نفسه معه، وقال طفيلى يجترى على وعلى حرمى بالدخول إلى دارى والنظر إلى عيالى، وقال يا غلمان السياط والجلادين والطفيلى يسمع جميع ذلك، ثم إنه خرج متبخترا سابلأ ثيابه يشد تكة لباسه غير مكترث بما قاله إسحق، وقال جعلت فداك أى شىء أبقيت من هذك ومع هذا كله فهل عرفتنى.

قال إسحق ومن أنت ويلك، قال أنا صاحب أمير المؤمنين وخيبة سره، لولا حرمة طعامكما ومماحتى لكما لترككما فى عماء من أمرى حتى كنت أنت تعرف عاقبة أمرك وإقدامك على ما فيه هلاكك وفساد حالك عند أمير المؤمنين، فلم يسعهما غير القيام إليه والاعتذار بين يديه وقالأ له والله لا نعرفك ولا نعلم حالك فلك الفضل علينا بتطفيلك إلى عشرتنا فأنت المحسن المتفضل، ولكن تم إحسانك واستر ما نحن فيه، ثم قال إسحق يا غلام خلعه فأتى بثياب فاخرة فألبسها له وتقدم إلى إسراج دابة هملاج بسرج ولجام حسن، ولم يزالأ به حتى طابت نفسه ووعدهما كتمان أمرهما فلما حضر وقت الانصراف ودعهما واتبعه إسحق بخادم وصرة فيها ثلثمائة دينار فأخذها وركب الدابة ومضى إلى حال سبيله فلما كان الغد دخل على المأمون فقال أين كنت يا على وما قصتك أمس، فتغير لونه ولم يشك أن الحديث بلغه فقال الأمان يا أمير المؤمنين وأكب على البساط يقبله قلق لك الأمان أخبرنى فأخبره القصة فضحك المأمون حتى كاد أن يغشى عليه وقال أفى الدنيا أظرف

من هذا وأحسن حيلة ووجه إلى إسحق فلما حضر قال هبه لى يا إسحق فجعل إسحق يتأسف على ذلك الطفيلى وكيف خلص منه فقال المأمون بحياتى هبه لى وعلى به فلم يزل إسحق فى طلبه حتى ظفر به وجاء به إلى المأمون فأحسن إليه وجعله أحد ندمائه .

وحكى صاحب تاريخ بغداد عن مخارق المغنى قال تطفلت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بمائة ألف درهم فقيل له كيف ذلك قال شربت معه ليلة إلى الصبح فلما أصبحنا قلت له يا سيدى إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فأخرج إلى الرصافة فأتنسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين قال نعم وأمر البوابين أن يتركونى فخرجت أتمشى وإذ أنا بجارية كأن الشمس تشرق من وجهها فتبعتها ورأيت معها زنبيلًا فوقفت على صاحب فاكهة فاشتريت منه سفرجلة بدرهم ورمانة بدرهم وكمترية بدرهم وانصرفت فتبعتها فرأتنى فقال لى يا ابن الفاعلة إلى أين تريد قلت خلفك يا سيدتى فقال ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك أحد فيقتلك فتأخرت ومشيت من بعيد وهى تمشى أمامى ، ثم التفتت فرأتنى فشتمتنى شتمًا قبيحًا ، ثم جاءت إلى باب كبير فدخلت فيه وجلست أنا بحذاء الباب وقد ذهب عقلى ونزلت على الشمس وكان يوما حارا فما لبثت أن جاء فتیان كأنهما بدران على حمارين فلما وصلا إلى الباب استأذنا فأذن لهما فدخلا ودخلت معهما فظن صاحب المنزل أنى معهما وظن أن صاحب المنزل قد دعانى وجيء بالأكل فأكلنا وغسلنا أيدينا ، ثم قال لنا صاحب المنزل هل لكما فى فلانة قالوا إن تفضلت فاستدعى تلك الجارية فخرجت صاحبتى ووراءها وصيفة تحمل عودها فوضعت فى حجرها وغنت فشربوا وطربوا فقالوا لمن هذا الصوت قالت لسيدى مخارق ثم غنت صوتا آخر فشربوا وطربوا وهى تلحظنى وتشك فى فقالوا لمن هذا الصوت فقالت سيدى مخارق ، ثم غنت صوتا ثالثا فطربوا وشربوا بالأرطال فقالوا لمن هذا الصوت قالت لسيدى مخارق ، فلم ألبث أن قلت يا جارية شدى يدك

فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذى تقول عليه فاستدعيت بدواة وقضيب وغنيت الصوت الذى غنته الجارية أولاً فقاموا إلى وقبلوا رأسى .

قال الراوى وكان مخارق أحسن الناس صوتا وكان يوقع بالقضيب توقيعا عجيباً، ثم غنيت الصوت الثانى والثالث فكادت عقولهم تطير فقالوا بالله من أنت يا سيدى، فقلت أنا مخارق فقالوا ما سبب مجيئك، قلت طفلى أصلحك الله وأخبرتهم بخبرى فقال صاحب البيت لصديقيه أما تعلمنا أنى أعطيت فى الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها قال نعم قال هى له قال صديقه علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف . قال مخارق فملكونى الجارية وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها وكلما مررت بالواضع التى شتمتنى فيها أقول لها يا مولاتى أعيدى كلامك فتستحي منى فأحلف عليها لتعيده فتعيده حتى وصلنا إلى باب أمير المؤمنين فقيل لى إنه انتبه وطلبك فى منازل أبناء القواد فلم يجدك وتغيظ عليك غيظاً عظيماً شديداً فدخلت عليه ويدى فى يدها فلما رأتى سبنى وشتمتنى فقلت يا أمير المؤمنين لا تعقل وحدثته القصة فضحك وقال نحن نكافئهم عنك فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم ثلاثين ألف درهم ولى بعشرة آلاف درهم .

وحكى القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى كتابه مسالك الأنصار فى ممالك الأمصار فى ترجمة الأمر بأحكام الله أبى على المنصور، قال بينما هو فى موكبه قبلى بركة الحبش إذ مر برجل على باب بستان له وحوله عبيد وموالى فاستسقاء المنصور ماء فسقاه ثم قال يا أمير المؤمنين قد أطمعتنى فى السؤال فإن رأى أمير المؤمنين أن يسعفى بنزوله لأضيفه فليفعل فقال ويحك معى الموكب بالجيش وليس عندك ما يكفينى وأنا لا يمكننى النزول وحدى فقال وليكن يا أمير المؤمنين فنزل وترجل الجيش معه فأخرج الرجل مائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق فأكهة ومائة جام حلوى ومائة زبيدة أشربة سكرية فبهت الأمير وقال له أيها الرجل خبرك عجيب، فهل علمت بقدمونا

فأعددت لنا ذلك قال لا والله يا أمير المؤمنين وإنما أنا رجل تاجر من رعيته
لى مائة محظية فلما أكرمنى أمير المؤمنين بنزوله أخذت من كل واحدة شيئاً
من فرشها وراتب أكلها وشربها ولكل واحدة فى كل يوم طبق طعام وطبق
بوارد وطبق فاكهة وجام حلوى وزبديّة شراب فسجد الأمير شكراً لله تعالى
وقال الحمد لله الذى جعل فى رعايانا من يسع حاله ذلك، ثم أمر له بجميع
ما فى بيت المال من الدراهم المضروبة فى تلك السنة، فكانت ثلاثة آلاف ألف
درهم وسبعمائة ألف درهم، ولم يركب حتى أحضرها وأعطاهما للرجل وقال
له استعن بهذه على حالك ومروءتك، ثم ركب وانصرف.

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلى دعانى يحيى بن خالد فدخلت عليه
فوجدت الفضل وجعفر ولديه جالسين بين يديه فقال يا إسحق أصبحت اليوم
مهموما فأردت الصبح لأتسلى فغنى صونا للى أرتاح له فغنيت:

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرفت بيحيى وبالفضل ابن يحيى وجعفر
فما خلقت إلا الجود أكفهم وأرجلهم إلا لأعواد منبر
فسر وأمر لى بمائة ألف درهم وأمر لى كل واحد من ولديه بمائة ألف
درهم فحملت المال وانصرفت.

وحكى عن مخارق قال أصبحت السماء يوماً مغيمة واصطبج الرشيد
مع حريمه فأمرنا بالانصراف وأذن لنا أن نقيم فى منازلنا ثلاثة أيام، فمضى
النداما أجمعون إلى منازلهم فقلت والله لأذهبن إلى أستاذى إبراهيم الموصلى
فأعرف خبره ثم أعود وأمرت من عندى أن يهيئوا إلى مجلسنا حسناً إلى وقت
رجوعى فجئت إلى دار إبراهيم وقلت للبواب ما خبر أستاذى قال ادخل
فدخلت فإذا هو جالس فى رواق وبين يديه أباريق الشراب وأطباق الفواكه
والرياحين والستارة منصوبة والجوارى خلفها فقلت ما بال الستارة لا أسمع من
ورائها صوتاً. قال اقعد ويحك إنى أصبحت على ما ترى فأتانى خبر ضيعة

تجاورنى وقد والله طلبتها زمانا وتمنيتهها فلم أملكها، وقد أعطى الآن فيها مائة ألف درهم فقلت له وما يمنعك منها فوالله لقد أعطاك الله أضعاف هذا المال قال صدقت ولكن نفسى غير سامحة بإخراج هذا المال فى لحظة واحدة فخذ هذا الصوت ونقر بقضيب كان فى يده على صينية وألقى على هذه الأبيات:

نام الخليون من هم ومن سقم وبت من كثرة الأحزان لم أنم
يا طالب المال والمعروف مجتهدا اعمد ليحى حليف الجود والكرم

قال فأخذته وأحكمته ثم قال امض الساعة إلى بيت الوزير يحيى بن خالد فاستأذن عليه وحدثه بما رأيت واذكر لضيعة وعرفه أنى صنعت هذا الصوت فأعجبني ولم أر أحدا يستحقه إلا جاريته دنانير، وإنى ألقيته عليك لتلقيه عليها فإنه يدعو بها ويأمر بنصب الستارة، ويقول لك اطرحه عليها فاطرحه وأتى بما يكون من الخبر. قال فجئت باب يحيى وأعلمته وألقيت الصوت على الجارية حتى أحكمته فقال لى أتقيم عندنا أم تنصرف فقلت بل أنصرف أطل الله تعالى بقاء الوزير فقال يا غلام احمل معه عشرة آلاف درهم واحمل إلى إبراهيم مائة ألف درهم فحملت مالى وأتيت إلى منزلى فشرت على من عندى من الجوارى دراهم من تلك البدره، وأكلت وشربت بقیة يومى فلا أصبحت قلت والله لأذهبن إلى أستاذى ولأعرفن خبره فأتيت إليه ودخلت فوجدته مثل ما كان بالأمس، فقلت له ما الخبر ألم يأتك المال قال نعم غير أنه لما دخل منزلى بخلت نفسى بإخراجه.

ثم ألقى على صوتا آخر وقال اذهب به إلى الفضل بن يحيى وحدثه عنى كما فعلت بالأمس وأخبره بما فعل أبوه قال مخارق فأتيت به إلى الفضل ابن يحيى وحدثته بما كان بالأمس من أبيه فأمر أن يحمل معى عشرون ألف درهم وإلى إبراهيم مائتا ألف درهم، وفعلت كما فعلت بالأمس وغدوت عليه فوجدته على مثل حاله الأول، فاعتذر مثل عذره وألقى على صوتا آخر وقال يم به جعفر وحدثه بما كان من أبيه وأخيه فأتيت به جعفر بن يحيى

وأخبرته بما كان منهما فأمر أن يحمل معي ثلاثون ألف درهم وإلى إبراهيم
ثلاثمائة ألف درهم فحملت إليه فلما جئت من الغد لإبراهيم بكى وقال
وصلني إلى ستمائة ألف درهم وأنا جالس في بيتي لم أبرح منه فعلى مثل
هؤلاء يناح ويكي.

ومن الحكايات المستحسنة ما حكى عن إبراهيم بن المهدي قال قال جعفر
بن يحيى يوما إنني استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غدا فهل أنت مساعدى
فقلت جعلت فداك أنا أسعد الناس بمساعدتك وأسرههم بمحادثتك قال فبكر
إلى بكور الغراب قال فأتيته عند الفجر فوجدت الشمعة بين يديه وهو ينتظرني
للميعاد فصلينا ثم أفضنا في الحديث ثم قدم إلينا الطعام فأكلنا فلما غسلنا
أيدينا خلعت علينا ثياب المنادمة وبخرنا وطيبنا ثم ضمخنا بالخلوف ثم مدت
الستارة فظللنا في أنعم عيش، ثم إن جعفر تذكر حاجة فدعا بالحاجب وقال
إذا أتى عبد الملك فإذن له يعنى قهرمانا له فاتفق أن جاء عبد الملك بن صالح
عم الرشيد وهو من جلالة القدر والورع والامتناع من منادمة الرشيد على أمر
عظيم، وكان الرشيد اجتهد أن يشرب معه قدحا فلم يقدر عليه ترفعا لنفسه
فلما رفع الستر وطلع علينا كاد أن يسقط القدح من أيدينا وعلمنا أن الحاجب
قد غلط بينه وبين عبد الملك القهرمان فأعظم جعفر ذلك وارتاع له ثم قام إليه
إجلالا فلما نظر إلينا على تلك الحالة دعا غلامه فدع إليه عمامته وسيفه، ثم
قال اصنعوا بنا ما صنعتموه بأنفسكم قال فجاء الغلمان فطرحوا عليه ثياب
المنادمة من الحرير وخلقوه ودعا بالطعام فأكل وشرب ثلاثا، ثم قال ليخفف
عنه فإنه شيء والله ما شربته قط فتهلل وجه جعفر وفرح ثم التفت جعفر إليه
وقال جعلت فداك لقد تطولت وتفضلت وساعدت فهل من حاجة تبلغ إليها
قدرتي وتحيط بها بغيتي فاقضها لك مكافأة لما صعت قال نعم إن في قلب
أمير المؤمنين على غضبا فتسأله الرضا عنى قال قد رضى عنك أمير المؤمنين
قال وعلى عشرة آلاف دينار قال هي حاضرة من مالى ولك من مال أمير
المؤمنين مثلها قال عبد الملك وابنى إبراهيم أريد أن أشد ظهره بصهارة أمير

المؤمنين . قال جعفر قد زوجه أمير المؤمنين ابنته الغالية ثم قال عبد الملك وأحب أن تخفق الألوية على رأسه فقال جعفر قد ولاه أمير المؤمنين مصر ثم انصرف عبد الملك بن صالح قال إبراهيم بن المهدي فبقيت متعجبا من إقدام جعفر على الرشيد بهذه الأمور وقلت عسى أن يجيبه فيما سأل من الرضاء والمال والولاية ، وأما التزويج فلا أدري ما يكون فإن أمير المؤمنين متى أطلق لجعفر أو غيره تزويج بناته فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأرى ما يكون فدخل جعفر فلم يلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي وإبراهيم بن عبد الملك بن صالح فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه على الغالية بنت الرشيد وعقد له لواء الولاية لى مصر ، والرايات تخفق على رأسه وبين يديه وحملت البدر إلى منزل عبد الملك وخرج جعفر وأشار إلينا فلما صرنا إلى منزله التفت رينا وقال تعلقت قلوبكم بحديث عبد الملك فأحدثكم بأمره لما دخلت على أمير المؤمنين وتمثلت بين يديه . قال لى كيف كان أمس يا جعفر فحدثته حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح وكان متكافئا فاستوى جالسا وقال إيه الله أبوك فقلت سألتنى فى رضاءك يا أمير المؤمنين قال بم أجبته قال قلت قد رضى عنك أمير المؤمنين قال قد أنجزته قال ثم ماذا قلت وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار دينا قال بم أجبته قال قلت قد قضاها أمير المؤمنين عنك قال قد قضيتها قال ثم ماذا قلت ورغب أن يشتد ظهره بصهارة أمير المؤمنين لولده إبراهيم قال بم أجبته قال قلت قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية قال قد أمضيت ذلك قال ثم ماذا قلت قال وأحب أن تخفق الألوية على رأس ولده إبراهيم . قال بم أجبته قال قلت قد ولاه أمير المؤمنين على مصر قال قد وليته فأمر بإحضار إبراهيم بن عبد الملك والقاضى والشهود فحضرُوا وتم له جميع ذلك من ساعته قال إبراهيم بن المهدي فوالله ما أدري أى الثلاثة أكرم وأعجب فعلا ما ابتدأه عبد الملك من المساعدة فى شرب الخمر ولم يكن يشربها ولباسه الحرير من ثياب المنادمة وكان رجلا عارفا ورعا أم أقدام جعفر على الرشيد بما أقدم أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة والسجايا الظاهرة .